محمود محمد طه

الرسالة الثانية من الاسلام

الطبعة الرابعة

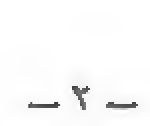
محمود محمد طه

الرسالة الثانية من الاسلام

الطبعة الثالثة

رجب ١٣٨٩

اكتوبر ١٩٦٩





الفهـــرســـت

الصفحـة

الصفحة

الباب الرابع

الباب الخامس

الصفحة

الباب السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب « الرسالة الثانية من الاسلام » وكانت الطبعة الأولى منه قد صدرت فى يناير من عام ١٩٦٧ ، الموافق لشهر رمضان المكرم من عام ١٣٨٦ .. ثم صدرت الطبعة الثانية منه فى ابريل من عام ١٩٦٨ ، يوافق المحرم من عام ١٣٨٨ ... وعند صدور هذه الطبعة صرفتنا صوارف العمل عن تصديرها بمقدمة خاصة بها ..

هذا الكتاب ــ الرسالة الثانية من الاسلام ــ كتاب جديد من جميع الوجوه... وهو، الى جدته، غريب كل الغرابة، ولا غرو، ذلك بأنه بشارة بعودة الاسلام من جديد، وأى الناس، من علماء الناس، لا ينتظر الغرابة فى عودة الاسلام من جديد ؟ ألم يقل المعصوم : « بدأ الاسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ! قالوا من الغرباء يارسول الله ؟ قال الذين يحيون سنتى بعد اندثارها » ؟ ..

فالغرابة فى أصل عودة الاسلام ، ولكن هذا كثيرا ما يغيب عن الذين يتصدون للكتابة عن الاسلام ، ولقد تعرض لهذا الكتاب بعضهم فتورطوا فى معارضة ما لم يحسنوا فهمه ، ولم يطيقوا الصبر عليه ، فجاءت معارضتهم مثلا من سوء الفهم ، وسوء التخريج ، وسوء القصد أيضا ، ولسنا بحاجة لأن نرد على

هؤلاء ، فان سوء صنيعهم يكفينا اياهم ، ولكننا نحب أن تنبه من عسى يحتاج الى تنبيهنا من القراء الى أن هذا الكتاب حق ، وان الاطلاع عليه يقتضى الصبر ، والاناة ، ودقة النظر ، فاذا ظفر القارىء بأولئك فانه سيتفتح ذهنه على فهم جديد ، للقرآن وللاسلام ، وسيحمد عاقبة صبره ، وطول اناته ، ان شاء الله ..

السنة والشريعة

ولقد ذكر النبى فى حديثه الغرباء ، وقال انهم هم الذين يحيون سنته بعد اندثارها .. وهم ، بالدعوة الى هذا الاحياء ، يصبحون غرباء بين أهليهم ، وذلك لما يصحب هذه الدعوة من خروج عن مألوف ما عليه الناس .. هم غرباء الحق بين قوم يغدو الحق بينهم غريبا لطول ما ألفوا الباطل فظنوه حقا ، ولطول ما غفلوا عن الحق ..

ان مما الف الناس ان سنة النبى هى قوله ، واقراره ، وعمله .. والحق ان هذا خطأ ، فان قول النبى ، واقراره ، ليسا سنة ، وانما هما شريعة .. واما عمله فى خاصة نفسه فهو سنة .. نعم هناك من قوله قول يلحق بالسنة ، وذلك هو القول الذى ينم عن حال قلبه من المعرفة بالله .. أما أقواله التى أراد بها الى تعليم الأمة فى أمر دينها فهى شريعة ، والفرق بين الشريعة ، والسنة ، هو الفرق بين الرسالة ، والنبوة ، أو هو الفرق بين مستوى الأمة ، من أعلاها الى أدناها ، ومستوى النبى .. وذلك فرق شاسع وبعيد ..

السنة هي عمل النبي في خاصة نفسه ، والشريعة هي تنزل النبي ، من مستوى عمله في خاصة نفسه الى مستوى أمته ، ليعلمهم فيما يطيقون ، وليكلفهم فيما يستطيعون .. فالسنة هي نبوته، والشريعة هي رسالته .. وانما في مضمار رسالته هذه قال: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم »

الاسلام والايمان

والناس ، اليوم ، لا يملكون القدرة على التمييز الدقيق بين الاسلام والايمان ، فهم يعتقدون ان الايمان أكبر من الاسلام ، وقد ورطهم في هذا الخطأ عجزهم عن الشعور بحالة الوقت ، ذلك بأن الوقت الذى كان فيه هذا الفهم صحيحا قد انقضى ، وأقبل وقت تطور فيه فهم الدين ،وانتقل من مستوى الايمان ، الى مستوى الاسلام .. الأمر فحواه كالآتي :

الاسلام فكر يرتقي السالك فيه على درجات سلم سباعي ، أولها الاسلام ، وثانيها الايمان ،وثالثها الاحسان ، ورابعها علم اليقين ، وخامسها علم عين اليقين،وسادسها علم حق اليقين ، وسابعها الاسلام من جديد ..ولكنه في هذه الدرجة يختلف عنه في الدرجة الأولية ، اختلاف مقدار ، فهو في الدرجة الأولية انقياد الظاهر فقط ، وهو في الدرجة النهائية انقياد الظاهر والباطن معا .. وهو في الدرجة الأولية قول باللسان ، وعمل بالجوارح ، ولكنه في الدرجة النهائية انقياد ، واستسلام، ورضا بالله في السر والعلانية .. وهو في الدرجة الأولية دون الايمان ،

ولكنه فى الدرجة النهائية أكبر من الايمان .. وهذا ما لا يقوى العلماء الذين نعرفهم على تمييزه.. ولقد لبس على علماء الدين هذا الأمر حديث جبريل المعروف، الذى رواه عمر بن الخطاب ، قال : « بينا كنا جلوسا عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم اذ أقبل رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يعرفه منا أحد ، ولا يرى عليه أثر السفر ، فجلس الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، واسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع يديه على فخذيه ، ثم قال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام .. قال الاسلام ان تشهد الا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، وأن تقيم الصلاة ، وأن تؤتى الزكاة، وأن تصوم الشهر ، وأن تحج البيت ، اذا استطعت اليه سبيلا.. قال صدقت . فعجبنا له ، يسأله ويصدقه !! ثم قال فأخبرنى عن الايمان .. قال الايمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والقدر ، خيره وشره ، واليوم الآخر .. قال صدقت .. ثم قال فأخبرنى عن الاحسان .. فقال الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فأن لم تكن تراه فانه يراك .. قال صدقت.. ثم قال: أخبرنى متى الساعة ؟ ؟ فقال ما المسئول عنها بأعلم من السائل !! قال فاخبرنى عن علاماتها .. قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة ، العراة ، رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان .. قال صدقت .. ثم انصرف ، فلبثنا مليا .. ثم قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يا عمر ، أتدرى من السائل ؟ قلت الله ،

ورسوله أعلم .. قال هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم !! » .. هذا الحديث لبس على علمـاء الدين الأمر فظنوا أن مراقى ديننا انما هـى الاسـلام ، والايـمـان ، والاحسان .. ولما كان واردا فى القرآن قول الله تعالى عن الاعراب « قالت الاعراب آمنـا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الايمان فى قلوبكم . » فقد أصبح واضحا أن الايمـان أعلى درجة من الاسلام .. ومـا علموا أن الأمر يحتاج الى نظر ..

جلية الأمر

وجلية الأمر ان الاسلام ، كما هو وارد فى القرآن ، قد جاء على مرحلتين : مرحلة العقيدة ، ومرحلة الحقيقة أو سمها مرحلة العلم .. وكل مرحـلة من هاتين المرحلتين تقع على ثلاث درجات ..

فأما مرحلة العقيدة فدرجاتها الثـلاث هى : الاسـلام ، والايمان ، والاحسان .. وأمـا مرحلة العلم فدرجاتهـا الثلاث هى : علم اليقين ، وعلم عين اليقين ، وعلم حق اليقين .. ثم تجىء ، بعد ذلك ، الدرجة السابعة من درجات سلم الترقى السبـاعى ، وتلك هى درجة الاسلام ، وبهـا تتم الدائرة .. وتجىء النهـاية تشبه البداية ، ولا تشبههـا .. فهى فى البداية الاسلام ، وهى فى النهاية الاسلام . ولكن شتان بين الاسلام الذى هو البداية ، وبين الاسلام الذى هو النهاية .. وقد سبقت الى ذلك الاشارة ..

ومرحلة العقيدة هى مرحلة الأمة المؤمنة .. وهى أمة الرسالة الأولى ..

ومرحلة العلم هى مرحلـة الأمة المسلمة ..وهى أمة الرسالة الثانية .. وهذه الامـة لم تجىء بعد ،وانما جاء طلائعها ،فرادى ، على مدى تاريخ المجتمع البشرى الطويل . وأولئك هم الأنبياء ، وفى مقدمتهم سيدهم ، وخاتمهم، النبى ، الأمى ، محمدبن عبدالله ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.. وهو قد بشر بمجىء هـــذه الأمة المسلمة، كما جاء برسالتها ،مجملة فى القرآن ، مفصـلة فى السنة ، وقد أسلفنا الاشارة الى معنى السنة ... وحين تجىء هذه الامة المسلمة فانها لاتبدأ الا بمابدأت به الامة المؤمنة،وهى مرحلة العقيـــدة ، ولكنها لاتقف فى الدرجة الثالثة من درجات السلم التي وقف جبريل فى أسئلتـــه عندها ، وانما تتمداها فى التطور الى ختـــام الدرجـات ، فتكون بذلك صاحبة عقيدة ، وصاحبة علم ، فى آن معا ، فهى مؤمنة ، ومسلمة ، فى حين أن الأمة الأولى مؤمنة ، وليست مسلمة ، بهذا المعنى النهائى للاسـلام ..

ويجب أن يكون واضحـا،ان جبريل،انما وقف ، فى أسئلته، عند نهاية درجات العقيدة لأنـه،انما جاء ليبين للأمة المؤمنة دينها، ولم يجىء ليبين للأمة المسلمة ،التى لما تأت بعد ..

ان محمدا رسول الرســالةالأولى ، وهو رســول الرسالة

الثانية .. وهو قد فصل الرسالة الأولى تفصيلا ، وأجمل الرسالة الثانية أجمالا ، ولا يقتضي تفصيلها الا فهما جديدا للقرآن ، وهو ما يقوم عليه هذا الكتاب الذي بين يدي القراء ..

ان هذا الكتاب يهدي الطريق ، ولكنه لا يمكن من نفسه الا الذين يقبلون عليه بأذهان مفتوحة ..

عند الله نلتمس التسديد ، ونجح المراد .. انه نعم المولى ..

الاهــداء

الى الانسانية !

بشرى .. وتحية .

بشرى بان الله ادخر لها من كمال حيــاه الفكر ، وحيــاة الشعور ، ما لا عين رات ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وتحية للرجــل وهو يمتخض ، اليوم ، في احشائها ، وقد اشتد بها الطلق ، وتنفس صبــح الميــلاد .

بسم الله الرحمن الرحيم

« اليوم اكملت لكم دينكم
واتممت عليكم نعمتي ورضيت
لكم الاسلام دينا »

نحمدك اللهم ، ونستهديك ،
ونستعينك ، ولا نحصي ثناء عليك ، انت
كما اثنيت على نفسك :

توطئة البحث

عندما استعلن النور الالهي بمحمد الأمي من جبال مكة فى القرن السابع الميلادى ، أشرقت شمس مدنية جديدة ، بها ارتفعت القيمة البشرية الى قمة لم يسبق لها ضريب فى تاريخ البشرية .

ولقد قامت تلك المدنية الانسانية الجديدة على أنقاض المدنية المادية الرومانية فى الغرب، وعلى أنقاض المدنية المادية الفارسية فى الشرق ، ولقد بلغت هذه المدنية الانسانية الجديدة أوجها ، من الناحية النظرية على الأقل ، غداة أنزل الله تعالى

على نبيه الآية التى صدرنا بهـا هذا السفر ، وهى قوله تعـالى « اليـوم أكـملت لكم دينكم ،واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا . » وذلك فى نهاية الثـلث الأول من القـرن السابع ، ثم ان النبى لم يلبث أن التحق بربه ، فانثلم بذلك قمة هـرم هذه المدنيـة الانسـانية الجديدة ، ومن أبلغ ما بلغنا فى ذلك عبارة أحد الأصحاب حين قال ، « ما كدنا ننفض أيدينـا من تراب قبر رسـول الله حتى أنكرنا قلوبنا » وظهر صدق هذه العبارة عمليا فى أخريات خلافـة عثمان ، منذ انتهى الى ما يعرف فى التـاريخ الاسلامى بالفتنـة الكبرى .

وهذه المدنيـة الانسانيـة الجديدة ، التى جاء بها الله على لسان محمد ، والتى عاش محمد فى أوجها ، والتى انحسرت قمة موجتها بهذه السرعة المذهلة لدى موت محمد ، كما جاء فى عبارة أحد أصحابه ، ما زالت قمتهـا تطمئن ، وقاعدتها تتسع ، حتى عادت مدنية مـادية تشبه ، من بعض الوجوه ، المدنية الرومانية، والمدنية الفارسية ، اللتين أسلفنا القول بأن مدنية الاسلام قامت على أنقاضهما .

يقولون ان التاريخ يعيـد نفسه ، وهذا حق ، ولكنه ليس كل الحق ، ذلك بأن التاريخ لا يعيد نفسه بصورة واحدة ، وانما يعيدها بصورة تشبه من بعـض الوجوه ، وتختلف من بعضها ، عما كان عليه الأمر فى سـابقه ، فالمكان ليس كرويا ، ولا الزمان،

تبعا لذلك ، بكروى ، وانما هما لولبيان ، يسيران من قاعدة الى قمة ، تشبه فيهما نهاية الحلقة بدايتها، ولا تشبهها .

وكما ان الزمان ، على كوكبنا هذا ، يسير على رجلين ، من ليل ونهار — من ظلام ونور — وكما أن الانسان يمشي على رجلين من شمال ويمين ، فكذلك الحياة تتطور على رجلين من مادة وروح .. وعندما يقدم المجتمع البشرى ، فى ترقيه ، رجل المادة ، ويثبتها، ويعتمد عليها ، يكون فى حالة تهيؤ ليقدم رجل الروح ، وهو لابد مقدمها ، « كان على ربك حتما مقضيا . » ذلك بأن تقدم الحياة لا يقف اطلاقا ، ولا يتأخر ، ولا يكرر نفسه ، وانما يسير قدما فى مدارج مراقيه ، حيث تطلب الحياة ان تكون كاملة فى الصور ، كما هى كاملة فى الجوهر . وهيهات !!

أوقل ان سير الحياة ، فى مراقيها ، كسير الموجة ، فهى لا تنفك بين سفح وقمة ، وهى عندما تكون فى السفح انما تحتشد لتقفز الى القمة ، وانما يمثل السفح التقدم المادى للمجتمع البشرى ، وتمثل القمة تقدمه الروحى ،والذين لا يرون صورة سير المجتمع مكتملة ، وانما يرونها بالتفاريق ، ينعون عليه تقدمه المادى ، ولا يعتبرونه الا انحطاطا ، ويحسبونه رجسا من عمل الشيطان ، والله هو المسير الحياة اليه ، على هذين الرجلين، من المادة والروح . وفى الحق ، انه لدى التوحيد ، انما المادة والروح شىء واحد ، ولا يقع بينهما اختلاف نوع ، وان وقع بينهما اختلاف المقدار .

الباب الاول

المدنيــة والحضارة

المدنيــة غير الحضــارة ، وهما لا يختلفان اختلاف نوع ، وانما يختلفان اختلاف مقدار .. فالمدنية هى قمة الهرم الاجتماعى والحضارة قاعدته .

ويمكن تعـريف المدنيــة بأنها المقدرة على التميز بين قيم الأشياء ، والتــزام هذه القيــم فى السلوك اليومى ، فالرجــل المتمدن لا تلتبس عليه الوسائل مع الغاية ، ولا هو يضحى بالغاية فى سبيل الوسيلة . فهو ذو قيم وذو خلق . وبعبــارة موجزة ، فالرجل المتمدن هو الذى حقق حياة الفكر وحياة الشعور .

هل المدنية هى الاخلاق؟؟

هى كذلك ، من غير أدنى ريب ! ! وما هى الأخلاق ؟ للأخــلاق تعاريف كثيرة ، ولكن أعلاها ، وأشملها ، وأكملها هى أن تقول أن الأخلاق هى حسن التصرف فى الحرية الفردية المطلقة . ولقد قال المعصوم « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . » فكأنه قــال ما بعثت الا لأتمم مكارم الأخلاق، ومن أجل ذلك قلنا أن محمدا عاش فى أوج المدنية التى جاء بها الله عن طريقه ، ووصفه تعالى فيها بقوله « وأنك لعلى خلق عظيم »

وحين سئلت عائشة عن أخلاق النبي قالت « كانت أخلاقه القرآن » ومعلوم أن القرآن أخلاق الله ، وأخلاق الله انما هي في الاطلاق ، ومن هنا جاء التعريف بأن الأخلاق هي حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة .

ولقد كان محمد أقدر الناس على حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة ، وذلك لشدة مراقبته لربه ، ولدقة محاسبته لنفسه ، على كل ما يأتي ، وما يدع ، في جانب الله ، وفي جانب الناس . أليس هو القائل « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ! »

بل ان حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة انما هو سنة النبي ، التي طالما تحدث عنها الناس ، من غير أن يدركوا حقيقتها . وهذه السنة هي التي أشار اليها في حديثه المشهور عن عودة الاسلام ، وذلك حيث يقول « بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ! قالوا من الغرباء يا رسول الله ؟ قال الذين يحيون سنتي بعد اندثارها . »

فسنته هي مقدرته ، في متقلبه ومثواه ، وفي منشطه ومكرهه ، على حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة ، وتلك هي قمة الأخلاق ، وهي أيضا قمة المدنية .

وأما الحضارة فهي ارتفاق الحي بالوسائل التي تزيد من

حلاوة الحياة ، ومن طراوتها .. فكأن الحضارة هي التقدم المادي ، فاذا كان الرجل يملك عربة فارهة ، ومنزلا جميلا ، وأثاثا أنيقا ، فهو رجل متحضر ، فاذا كان قد حصل على هذه الوسائل بتفريط في حريته فهو ليس متمدنا ، وان كان متحضرا، وانه لمن دقائق التمييز ان تتفطن الى أن الرجل قد يكون متحضرا، وهو ليس متمدنا ، وهذا كثير ،وانه قد يكون متمدنا ، وهو ليس بمتحضر ، وهذا قليل ،والكمال في أن يكون الرجل متحضرا متمدنا في آن . وهو ما نتطلع اليه منذ اليوم .

المدنية الغربية

على هذا الفهم الدقيق ،فان المدنية الغربية الحاضرة ليست مدنية ، وانما هي حضارة،وهي ليست مدنية لأن موازين القيم فيها قد اختلت ، فتقدمت الوسيلة وتأخرت الغاية . ولقد ورد في « رسالة الصلاة » قولنا «ان المدنية الغربية الآلية الحاضرة عملة ذات وجهين : وجه حسن مشرق الحسن ، ووجه دميم .. فأما وجهها الحسن فهو اقتدارها في ميدان الكشوف العلمية ، حيث أخذت تطوع القوى المادية لاخصاب الحياة البشرية ، وتستخدم الآلة لعون الانسان :وأما وجهها الدميم ، فهو عجزها عن السعي الرشيد الى تحقيق السلام ، وقد جعلها هذا العجز تعمل للحرب ، وتنفق على وسايل الدمار اضعاف ما تعمل للسلام ، وأضعافه ما تنفق على مرافق التعمير .

فالوجه الدميم من المدنية الغربية الآلية الحاضرة هو فكرتها الاجتماعية ، وقصور هذه الفكرة عن التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة . حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وفى الحق ان العجز عن التوفيق بين هاتين الحاجتين :

حاجة الفرد ، وحاجة الجماعة ظل آفة التفكير الاجتماعى فى جميع عصور الفكر البشرى .

وهذا التوفيق هو ، الى اليوم ، القمة التى بالقياس اليها يظهر العجز الفاضح ، فى فلسفة الفلاسفة ، وفكر المفكرين ، ويمكن القول بأن فضيلة الاسلام لا تظهر ، بصورة يقصر عنها تطاول كل متطاول ، الا حين ترتفع المقارنة بينه وبين المذاهب الأخرى الى هذه القمة الشماء . » هذا ما قلناه فى « رسالة الصلاة » يومئذ ، ونقول اليوم أن من آيات اختلال موازين القيم فى هذه المدنية الغربية المادية ، ان الشيوعية الروسية أعطت اعتبارا للمجتمع ، وهو وسيلة ، فوق ما أعطت الفرد ، وهو غاية وان الاشتراكية فيها تقوم على حساب الحرية الجماعية ، وعلى حساب الحرية الفردية ، وليست الرأسمالية فى الغرب باحسن حالا ، فى هذا الباب ، من الشيوعية الروسية .

فشل المدنية الغربية

وهذه المدنية الغربية الآلية الحاضرة قد بلغت نهاية تطورها ،

وقد فشلت فشلا نهائيا وظاهرا فى أن تنظم حياة المجتمع البشرى المعاصر ، وآية هذا الفشل ان مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية لم يذق الاستقرار الذى ذاقه مجتمع ما بعد الحرب العالمية الأولى ، حين كانت هذه المدنية الغربية لا تزال غنية بأفانين الحلول لمشاكل ذلك المجتمع ، فقد كان المنتصر فى الحرب العالمية الأولى منتصرا فى السلام أيضا ، وقد كان بذلك قادرا على تنظيم المجتمع العالمى يومئذ ، بصورة من الصور ، مهما يكن عيبها ، فقد كانت كافية لتحقيق نزع السلاح ، ولو الى مدى ، والى حين ، وكانت كافية لتحقيق لون من الاستقرار . وأما المنتصر فى الحرب العالمية الثانية ، وهو بريطانيا ، فقد أصبح منهزما فى السلام الذى أعقبها ، وان أردت الدقة فقل ، لم يكن فى الحرب العالمية الثانية منتصر ومنهزم ، وانما أصبح الجميع فى مركب واحد ، تلفهم الحيرة فى جناحها الأسود ، وها قد انقضى على نهاية الحرب نيف وعشرون عاما ، ولا تزال البشرية من خوف الحرب فى حرب ، فهى تتحدث عن السلام ، وتنفق على التسلح أضعاف ما تنفق على مرافق التعمير ، وما ذاك الا لأنها لا تعرف طريقا الى السلام الا طريقا يقوم على تخويف العدو من عواقب المجازفة باشعال نار الحرب .

وسبب فشل المدنية الغربية الآلية الحاضرة فى تنظيم المجتمع الحاضر هو أنها بلغت نهاية تطورها المادى الصرف ، فى هذه المرحلة الحاسمة ، من مراحل تحولات المجتمع البشرى

المعاصر ، وأصبحت تفتقر الى عصر جديد تشفع به عنصرها القديم ، وتلقحه به ، وتزيد بذلك من طاقتها على التطور ، ومن مقدرتها على مواكبة ،وتوجيه حيوية المجتمع الحديث .

روسيا ، وهى تواجه الفشل اليوم فى تحقيق الاشتراكية ، بله الشيوعية ، وتنكص على أعقابها ، الى اجراءات هى أدخل فى الرأسمالية منها فى الاشتراكية، تتوخى بها ايجاد حوافز للانتاج جديدة ، تمطى أكبر الدليل على أن المدنية الغربية الحاضرة بلغت نهاية تطورها المادى الصرف، ووقفت عند نهاية الطريق المسدود وسيصبح لزاما عليها أن ترجع الى مفترق الطرق ، حيث تبدأ بسلوك طريق آخر، كانت شرة الثورة قد أذهلتها عن سلوكه منذ نصف قرن مضى . ولن تجد الصين فرصة التجربة الطويلة التى وجدتها روسيا ؛ذلك لأن الزمن قد أزف ، وأن المفارقه الكبيره بين طاقة المجتمع البشرى الحديث ، وقصور المدنية الغربيه أصبحت تتضح كل يوم ،وقد أخذت الصين تشعر بهذا التناقض الرهيب ، ولكنها لم تهتد الى متنفس له الا فى هذه الحالة المصبيه ، التى أسمتها سخرية ، بالثورة الثقافية يقوم بها ، فى الشوارع والأماكن العامة ، المراهقون ضد أساتذة الجامعات والعلماء،وهى تستهدف، فيما تستهدف ، تأليه ماو تسى تونغ ، وجعل كتاباته مصادر الثقافة الوحيدة ، ومناهل الحكمة التى ينتهى عندها رأى كل ذى رأى .

وليس من الضرورى ان نذكر الغرب الرأسمالى هنا ، لأن

معارقات المدنية العربيه تمثلهـا الشيوعية فى روسيا وفى الصـين أكثر مما يمثلها العرب ، ولأن الغرب الرأسمالى ليس بصاحب رأى جديد فى المدنية العربية ، وانما هو مقيم على القديم ، على تطوير يسير سببه تطرف الثورة الشيوعيـه ، مما اضطـره الى ملاقاتها فى نصف الطريق ، فى محاولة الابقاء على نظامه القديم ، فى وجـه الثوره المجتـاحـة . فسبب فشل المدنيه الغربية الآلية الحاضرة اذن ، هو ان تقدمهـا المادى والالى ، لم يشفع بتقدم خلقى يصحـح موازين القيم ، ويضع الالة فى مكانها من حيث انها خادم الانسان وليست سيدته ، فالتقدم المادى غير متنـاسق ، ولا متسـاوق ، مـع التقـدم الروحى ، وفى تفكيرنا الاجتماعى المعاصر ، كما سبق بذلك القول ، الرغيف يجـد اعتبارا فوق مـا تلقى الحـرية ، وهذه الظاهرة تنطبق على المذاهب الاشتراكية ، كما تنطبق على الرأسمالية . وفى الحق أن الشيوعية لا تختلف عن الرأسمالية ، الا اختلاف مقدار فهى كالرأسماليـة ، مـادية فى الأصل ، ولكنها أكفأ منها ، من حيث المقدرة على تحقيق الوفرة المادية ، وعدالة توزيعها ، ومـا ينبغى أن نخدع عن هذه الحقيقة بملاحظة العداوة الثائرة بينهما ، فانما هى بمثـابة العداوة التى تكون بين الفرق المختلفة فى الدين الواحد فهى عداوة لا تدل على اختـلاف المنبت كمـا تدل على وحدة الأديم الذى تقوم عليـه هذه الفرق المتناحرة .

وإذا أردنا أن نضع سبب فشل المدنيــة الغربيــة الآليــة الحاضرة وضعا محددا ، وجـــب علينا أن نقرر أن مرد هذا الفشل هو عجز هذه المدنية عن الاجابة على سؤالين ظلا بغــير جواب صحيح طوال الحقب السوالف من التاريخ البشري وقد اصبحت الاجابة عليهما ضربة لازب •

والسؤالان هما : ما حقيقة العلاقة بين الفرد والجماعــة ؟ وبين الفرد والكون ؟

الباب الثانى

الفرد والجماعة فى التفكير الفلسفى

أما الفلسفة الاجتماعيـة ،عبر العصور والى ان انتهـت بالشيوعية المعاصرة ، فانها قـد فشلت فى ادراك العلاقة بين الفرد والجماعة ، فهى قد ظنت ان الفرد اذا وجد الفرصة لممارسة حريته فان نشاطه سيكون ضد مصلحة الجماعـة ، ولما كانت الجماعـة أكثر من الفرد ، فان مصلحتهـا أولى بالرعاية من مصلحته ، ومن ثم أهـدرت حرية الفـرد ، فى سبيل مصلحة الجماعة ، متى ظهر انهما تتعارضان .

ومتى نظـرت الى تـاريخ المجتمع البشرى ، منذ نشأته والى يوم الناس هذا ، ظهر لك جليـاً أن حرية الفرد كثيرا ما تـعارض مع مصلحة الجماعة ، بل ظهـر لك ان الجماعة لم يقم نظامهـا ولم تصن مصالحها الا على حساب تقييد حرية الفـرد ، ذلك بأن الفرد البشرى ارتفع من حيوانية متوحشة ، لا هم لها غير تحصيل شهوة البطن والفرج ، ولما كان المجتمع البشرى فى أوليـاته لم يكن لينشأ الا اذا قيدت هاتان الشهوتان ، فقد قام العرف الذى ينظم العلاقات الجنسية ، فيحرم الأخت على الأخ ، ويحرم البنت على الأب ، ويحـرم الأم عـلى الابن ، ويحرم زوجة الابن على الأب ، ويحرم زوجة الأب على الابن ، قبل أن يقوم العرف الذى

يحرم الزنا عموما ، وقد أعان هذا العرف ، او سمه القانون الأول ، على تهدئة الغيرة الجنسية التى كانت تفرق الأسرة البشرية ، كلما بلغ الابناء فيها مبلغ الرجال ، فقد أصبح ، بعد هذا العرف ، من الممكن ان يتعايش ، في منزل واحد ، أو في منازل متجاورة ، الأب والابن البالغ والصهر والابن المتزوج ، وكل منهم آمن على زوجه من الآخرين • ولربما يكون العرف الذى ينظم احترام الملكية الفردية قد نشأ مع هذا العرف من الوهلة الأولى ، فانه ، فى المجتمعات البدائية ، ليس هناك كبير فرق بين ملكية الزوجة ، وملكية الآلة أو الكهف ، واذا كان لابد للمجتمعات الصغيرة أن تعيش فى وئام ، وفى مكان واحد ، وفى أعداد تتزايد دائما ، تصيد معا ، وتحارب أعداءها معا ، وتقابل صروف الأيام متحدة ، فانه لابد من التواضع على هذين العرفين ، اللذين ينظمان السلوك فى الجماعة ، ويصونان كيانها . ولابد أن عقوبة القتل كانت تنفذ فى الفرد لدى ثبوت تهمة الزنا ، فى هذه الدوائر ، عليه ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء • ولقد كانت عقوبة القتل توقع على الفرد أيضا لدى السرقة من عشيرته الأقربين ، ثم عممت فأصبحت تطبق لدى السرقة من حيث هى ، وذلك عندما اتسعت الجماعة ، ثم خففت ، فأصبحت تستأصل طرفا من السارق بدلا من استئصال حياته كلها ، ذلك بأن الأفراد قد بلغوا من الرفعة والذكاء بحيث يرتدعون بعنف أخف من العنف الذى كان ضروريا لردع أسلافهم •

وليس معنى هذا الحديث ان المجتمعات كلها نشأت بصورة واحدة فى كل مكان ، ولكنه مما لا شك فيه ان المجتمعات البشرية حيث نشأت فقد نشأت حول طائفة من العادات والأعراف ، التى تمثل نشأة القانون ، والتى يرجع اليها الفضل فى نشأة المجتمع البشرى • ولما كان الفرد البشرى الأول غليظ الطبع ، قاسى القلب ، بليد الحس ، حيوانى النزعة فقد احتاج الى عرف عنيف لترويضه ، ولنقله من الاستيحاش الى الاستيناس ، وكذلك كان العرف الاجتماعى الأول ، شديدا عنيفا ، يفرض الموت عقوبة على أيسر المخالفات ، بل انه يفرض على الأفراد الصالحين أن يضعوا حياتهم دائما فى خدمة مجتمعهم ،فقد كانت الضحية البشرية معروفة تذبح على مذابح معابد الجماعة ،استجلابا لرضا الآلهة ، أو دفعا لغضبها حين يظن بها الغضب ،ولقد كانت هذه الشريعة العنيفة، فى دحض حرية الفرد ، فى سبيل مصلحة الجماعة معروفة ومعمولا بها ، الى وقت قريب ، ففى زمن أبى الأنبياء ، ابراهيم الخليل ، وهو قد عاش قبل ميلاد المسيح بحوالى ألفى سنة ، كانت هذه الشريعة لا تزال مقبولة دينا وعقلا ، فانه هو نفسه قد أمر بذبح ابنه اسماعيل ، فأقبل على تنفيذ الأمر غير هياب ولا متردد ، فتأذن الله يومئذ بنسخها فانسخت ، وفدى البشر بحيوانية أغلظ من حيوانيته ، وكان هذا اعلاما بأن ارتفاع البشر درجة فوق درجة الحيوان قد أشرف على غايته ،ولقد قص الله علينا من أمر ابراهيم واسماعيل فقال « وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين * رب هب

لى من الصـالحين * فبشرنـاه بغلام حليم * فلمـا بلغ معـه السعى قال يـا بنى انى أرى فى المنـام انى أذبحك ، فانظر مـاذا ترى ، قال يا أبتى افعل مـا تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يـا ابراهيم * قـد صدقت الرؤيا انا كذلك نجـزى المحسنين * ان هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على ابراهيـم . »

« وتركنا عليه فى الآخرين » تعنى فيما تعنى أبطال شريعة العنف الفرد البشرى ، لأنها لبثت حقبا سحيقة ، وقد تم ارتفاعه بهـا ، فارتفـع من وهدة الحيوانيـة وأصبح خليقا أن يفدى بما هو دونه من بهيمة الأنعام .

ولا عبرة ببعـض صـور العنف التى لا يزال يتعرض لهـا الأفراد فى المجتمعـات البـشرية المعاصرة ، فأنها آيلة الى الزوال كلما أتيحت لهـا فرص الوعى والرشد . فان التضحية الحسية بالفرد البشرى لم تنته بجرة قلم على عهد ابراهيم الخليل ، والتاريخ يخبرنا أن المسلمين ، لدى فتح مصر ، قد وجدوهـا تمارس فى صورة عروس النيل ، فانه قـد قيل ان عمرو بن العاص ، فاتح مصر وأميرها يومئذ ، قد انتبـه ذات يوم على جلبة عظيمة ، فسأل عنها ، فأخبر أن القوم قد جرى عرفهم بأن يتخـيروا بنتا ، من أجمل الفتيـات ، ومن أعـرق الأسر ، يزفونهـا كل عـام الى النيل ، يلقونها فى أحضانه فداء لقومها من القحط ، لأنها تغرى

النيــل بأن يفيض عليهم باليمن والبركات ، فطلب اليهــم عمرو ابن العاص أن يستأنوا بها حتى يستأمر عمر بن الخطاب فى ذلك، فكتب الى عمر ، فرد عمر بجوابه المشهور الذى قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبد الله عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين ، الى نيل مصر .

السلام عليــك ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فأن كنت تفيض من عندك فلا تفض ، وان كنت انما تفيض من عند الله ففض .

وأمر عمرو بن العاص أن يلقيه فى النيل ، ففعــل ، وفاض النيل ، وأبطلت من يومئذ تلك العادة ، وتم بالعلم فداء جديد للفرد البشرى .

وهذا العنف العنيف بالفرد البشرى ، الذى استمر منذ فجر المجتمع البشرى ، وهو قبل فجر التاريخ بآمــاد سحيقة ، وظلت صوره الى وقت قريب ، كالذى سقنا عليه المثالين الماضيين ، ضلل المفكرين الاجتمــاعيين ، فظنوا أن حرية الفرد ، قياسا الى مــا جرى به التاريخ ، تتعارض دائما مع مصلحة الجماعة ، وان الرشد اذن فى أن يضحى بحرية الفــرد فى سبيل مصلحــة الجماعــة . وتورطت فى هذا الوهم الشيوعية، وهى طليعة الفلسفة الاجتماعية المعاصرة ، وصاحبة الدور التقدمى الذكى فى المدنية الغربية الآليــة الحاضرة .

الفــرد والكون فى التفكير الفلسفى

وعجز الفلسفة الإجتماعية المعاصرة فى ادراك العــلاقة بين الانســان والكــون ، أكبر من عجزها عن ادراك العلاقة بين الفرد والجمــاعة ، ولكن أثره أقــل ظهورا ، ذلك بأن علاقة الفــرد بالجماعة واجهت التطبيق العملى ، فى السياسة والتشريع والتنفيذ ، بينما لا تزال العلاقة بين الفــرد والكون فى الحيز النظرى ، وما ذاك الا لأننا لا نزال فى قبضــة غريزة القطيع ، لم يقو بنا الفكر حتى نبرز الى منازل الفرديات . ولكن ، مما لا ريب فيه ، ان عهد الجماعة أصبح يخلى مكانه لعهد الفرد الذى أخذت شمسه تؤذن بشروق ، وسيحل يومه حين يتم نظريا ، ثم عمليا ، فض التعارض المتوهم بين الفــرد والجماعة ، وهو أمر سنتحدث عنه بالتفصيل بعد قليل ، ان شاء الله .

والفهم الدقيق للعلاقة بين الانســان والكون ليس أمــر فلسفة نظــرية يمكن أن تلحــق بالترف الذهنى ، وانما هو أمر عملى ، عليــه يتوقف تحقيــق الفرديــة ، فى مضمار المجهــود الفــردى ، وفى مضمار تنظيــم الجماعــة لتكون والدا شرعيــا للأفــراد الذين يرجــى لهم أن يحققوا فردياتهم .

وضلال الفلسفة الاجتماعية عن فهم العلاقــة بين الانســان والكون فهما صحيحا انما يلتمس سببه فى استقراء التاريخ البشرى منذ بداياته ، ذلك بأن الانسان الأول ، عندما وقف على رجليه لأول مرة ، واستقبل بعقله البيئة الطبيعية التى عاش فيها ، وجدها

تزخر بالقوى الهائلة التي، فيما يبدو له ، تتركب بطريقة تختلف عن تركيبه ، وتتصرف بأسلوب لا يستقيم مع تفكيره ومع رغباته، وهي بعد لاتبالي بحياته أو موته، بل ان كثيرا منها ليسعى في اهلاكه سعيا حثيثا ، والذين يشاركونه الحياة ، بين هذه القوى الصماء الهائلة ، هم بين صيد وصياد ــ صيد يصيد ويصاد ، وصياد يصيد ويصاد، فكأن البيئة كلها، أنياب زرق ، ومخالب حمر ، وأصبح عليه هو ، اذا كان لابدله أن يحفظ مهجه ، أن يكيد أصناف الكيد ، وأن يحتال لعه ألوان الحيل .

ثم ان هذه القوى الصماء ،منها الهائل الرهيب الذى يعجز حيلته ، ويعيى عقله ، ومنها ما يطلب منه الضرر ، ومنها ما يطلب منه النفع ، فهدته حيلته الى التزلف اليها جميعا ، بدوافع الخوف ، أو بدوافع الحب ، فتذلل ، وتخشع ، وقدم الهدايا ، وقرب القرابين ، ورسم مراسيم العبادات . ومن القوى التى تموج بها البيئة الطبيعية التي عاش فيها ، قوى تنالها الحيلة ، وتبلغ منها المناجزة ، فاحتال أفانين الحيلة ، فبنى البيوت فوق الأشجار ، وعلى قمم الجبال ،وعلى أعمدة اتخذها من سيقان الشجر وغرزها فى أرض برك المياه ، وفى الأماكن المحصنة الأخرى . ثم هو باتخاذ الآلة ،من فروع الأشجار ، ومن قطع الأحجار ، قد مد فى قدرته على المناجزة .

والانسان ، بين العبادة والمناجزة ، تغلب عليه الوحشة ،

ويساوره القلق بأنه وحيد من نوعه ، يحتوشه الأعداء من جميع اقطاره ، يتحينون منه الغرة ، ويتربصون به الدوائر ، ومن ههنا قام فى خلد الانسان ان مكانه من الكون مكان اللدد والخصومة .

ولقد انتهت الفلسفة ببعض ابنائها الآن الى أن يقرروا ان التدين ، الذى دفع اليه الانسان الأول ، بالعوامل الطبيعية التى جرى ذكرها آنفا ، انما هو لازمة من لوازم الطفولة، وان الدين ، حيث وجد والى اليوم ، انما هو ظاهرة طفولة ، اذ لجأ الانسان الأول الى اله تخيله ليسد به حاجة الطفل فيه الى أب يحميه . وان الأصل فى مواجهة البيئة هو المناجزة ، لا التمليق ، وما دفع الانسان الى التمليق الا العجز عن المناجزة ، والآن ، وبتطويره لسلاحه الأول، من فروع الأشجار وقطع الأحجار ، الى أن بلغ به القنبلة الهيدروجينية ، فان مقدرته على المناجزة اكتملت ، أو كادت ، ويجب اذن ان يقلع عن التمليق ، أو قل عن التدين ، وعن الأديان، وعن الله .

والى خروشيف ينسب قول، زعموا انه قاله ، وهو ان قاقارين عندما دار فى الفضاء الخارجي وكان ذلك لاول مرة فى تاريخ تقدم العلم الحديث ، لم يجد ذلك الكائن الذى يدعونه الله، فكأن خروشيف لا يتصور الله الا من نوع المادة التى يزعم انه يعرفها ، وفى الحق، ان فلسفتهم ، حين عجزت عن تصور شيء وراء المادة ، اتخذت

من عجزهـا فضيلة ، فأنـكرت وجود كل شىء وراء المادة ، وذلك لـكى يستقيم لها القـول بان الانسان ، أثناء مناجرته لبيئتـه المادية ، يتطـور فى فهمه لهـا ، ويحسن من وسائله فى مناجزتها ، حتى يتم له قهرها وتسخيرهـا ، ويصبح بذلك سيد مصيره .

ان الضلال فى فهم علاقـة الانسان بالكون لم يبلغ ، فى أى وقت من الأوقات ، هذا البعـد الذى بلغه على عهد الشيوعية ، وباسم العلـم والفلسفـة ... والشيوعية هى طليعة لفلسفـة الاجتماعيـة المعـاصرة ، وهى صاحبة الدور التقدمى ، الذكى ، فى المدنية الغربية الآلية الحاضرة .. على أيسر تقـدير ، هذا مـا يبدو للشعوب الآن .

أم تقولـون ان الغـرب المسيحى يختلف فى مسألة الدين ، وفى أمر الله ، عن الشرق الشيوعى .

قد يكون هذا حقا من الناحية التقليدية ، ولكنه ليس بحق من الناحية العمليـة ، وليس فى فكرة الغرب عن الدين ، وعن الله ، ما يعصم الغرب من أن يصبـح شيوعيا ، ولقد كانت روسيـا ، قبل الثورة الشيوعية ، مسيحية ، وكانت أورثـوذكسية فى ذلك .

وفى الحق ، ان الدين ، سواء كان مسيحية أو اسلاما ، ان لم يستوعب كل نشاط المجتمع ، ونشاط الأفراد ، ويتولى تنظيم كل طاقات الحياة الفردية والجماعية ، على رشد وعلى هدى ، فانـه ينصل من حياة الناس ، ويقل أثره ، ويخلى مكانه لأية فلسفة أخرى ،

مهما كان مبلغها من الضلال ، مادامت هذه الفلسفة قادرة على تقديم الحلول العملية لمشاكل الناس اليومية ، أو حتى ما دامت قادرة على تضليل الناس ، الى حين ، باسم خدمة مصالحهم المعيشية . فان الناس ، ما داموا أصحاب معداة وأجساد ، يجب الا تهمل دعوتهم الى الفضيلة حاجة معداتهم وأجسادهم ، بل ان المعرفة بطبائع الأشياء تقضى بأن تكون دعوتهم الى الفضيلة عن طريق معداتهم وأجسادهم .

ومهما يكن من الامر بين الشرق الشيوعى ، والغرب المسيحى ، فان المدنية الغربية الآلية الحاضرة ليست مسيحية ، وهى قد عجزت عن ادراك العلاقة بين الفرد والجماعة ، كما عجزت عن ادراك العلاقة بين الفرد والكون ، وهى من جراء هذا العجز قد منيت بالقصور العملى عن الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية وذلك أكبر مظاهر فشلها .

ولسنا نحن الآن بصدد الزراية عليها ، ولا بصدد التقليل من شأنها ، وانما نحن بصدد دراسة علمية لها ، تضعها فى موضعها ، وتعرف لها حقها ، وتدعو الى سد النقص فيها لتغدو مدنية بعد أن أصبحت حضارة .

الباب الثالث

الفرد والجماعة فى الاسلام

أول ما تجب الاشارة اليه هو أن الفرد فى الاسلام هو الغاية وكل ما عداه وسيلة اليه ، بما فى ذلك وسيلة القرآن ، والاسلام ، تستوى فى ذلك المرأة مع الرجل مساواة تامة ، وهذا يعنى ان الفرد البشرى - امرأة كان أو رجلا، عاقلا كان أو مختل العقل - يجب الا يتخذ وسيلة الى غاية وراءه ، وانما هو الغاية التى تؤدى اليها جميع الوسائل •

وهذه الفردية هى جوهر الأمر كله ، اذ عليها مدار التكليف ، ومدار التشريف ، واذ لا تنصب موازين الحساب ، يوم تنصب ، الا للافراد - يتساوى فى ذلك الرجال والنساء وهذه النقطة تجب لها أن تكون مركزة فى الأذهان - فالله تعالى يقول « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ويقول « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ويقول « ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » ويقول «ان كل من فى السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » ويقول « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » وهذه المساواة بين الرجل والمرأة ، هى أصل الاسلام وانما ميزت بينهما الشريعة لعوامل تلتمس فى تطور المجتمع عبر التاريخ •

ومما لاريب فيه ان الفردالذى يقام له وزن فى الاسلام انما هو الفرد العارف بالله ، وانماجعل الاسلام كل فرد غاية فى ذاته ، وان كان أبله ،لانه جرثومةالعارف بالله ، وستحصل منه المعرفة ، عاجلا أو آجلا ، « كان على ربك حتما مقضيا » ولقد زعمنا فى مستهل هذا السفر ان الاسلام قد استطاع ان يفض التعارض البادى بين حاجة الفردوحاجة الجماعة ، وان ينسق هاتين الحاجتين فى سمط واحد ،تكون فيه حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، امتدادا لحاجةالجماعة الى العداله الاجتماعية الشاملة . وبعبارة أخرى ،استطاع ان يجعل تنظيم الجماعة وسيلة الى الحرية ، وهو بعدانما استطاع هذا التنسيق بفضل التوحيد ، الذى جعل شريعته تقع على مستويين . . مستوى الجماعة ، ومستوى الفرد :فأما تشريعه فى مستوى الجماعة فيعرف بتشريع المعاملات ، وأماتشريعه فى مستوى الفرد فيعرف بتشريع العبادات . والسمةالغالبة على تشريع المعاملات انه تشريع ينسق العلاقة بين الفردوالفرد فى المجتمع ،والسمة الغالبة على تشريع العبادات انه تشريع ينسق العلاقة بين الفرد والرب ، وليس معنى هذا ان كلا من هذين التشريعين يقوم بمعزل عن الآخر ، وانما معناه انهما شطراشريعة واحدة ، لاتقوم الابهما معا . وبينهما اختلاف مقدار ،لا اختلاف نوع . فتشريع المعاملاتتشريععباداتفىمستوىغليظ ، وتشريع العبادات تشريع معاملات فى مستوى رفيع ، وذلكلأن سمة الفردية فىالعبادات أظهر

منها فى المعاملات .. والمقرر انــه ليست للعبادة قيمة ان لم تنعكس فى معاملتك الجمــاعة معاملة هى فى حد ذاتها عبادة . ولقد جعل المعصــوم الدين كله فى هــذا المجال فقال : « الدين المعاملة » فكأن العبادة فى الخلوة مدرسة تعد الفرد الاعداد النظرى ، ثم هو لا يجد فرصة التطبيق العملى الا فى سلــوكه فى الجمــاعة ، وتمرسه بمعاملة أفرادها .

فالتوحيد يقرر ان الوجود كله مصدره واحد ، وطريقه واحد ، ومصيره واحد .. من الله صدر ، والى الله يعود ، وانما يعود فرادى « ولقد جئتمونــا فرادى كمــا خلقناكم أول مرة » . وليســت العودة الى الله بقطع المسافات ، وانما هى بتقريب الصفــات من الصفــات . بتقــريب صفــات المحدود ، من صفات المطلــق . وانما تكون عودة الفرد الى الله بوسائل العودة اليه ، ومنها وسيلة الاسلام ، ووسيلة القــرآن ، ووسيلة الجماعة .. والجماعة لها حرية ، وهى بمثابة قاعدة الهرم حين تكون حرية الفرد هى قمته . أو قل أن حــرية الجمــاعة هى الشجرة وحرية الفرد هى الثمرة ، ومن ثم ، ومن هذه النظرة الشاملة ، لا يجد الاسلام تعارضا ، ولا تناقضا ، بين الفرد والجماعة .

وحين وصل الاسلام ، بفضل التوحيــد ، الى هذا التحــقيق الدقيق ، بين الفرد والجمــاعة ، شرع كل تشريعاته بصورة تحقق فى سيــاق واحد ، حاجة الفــرد وحاجة الجماعة .. فلم يضــح

بالفرد فى سبيل الجماعة ، فيهزم الغـاية بالوسيلة ، ولـم يضح بالجماعة ، فى سبيل الفرد ، فيفرط فى أهم وسائل تحقيق الفردية ، وانما جـاء تشريعه ، فى جميــع صوره ، نسقا عاليا من المقدرة على التوفيق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعيــة الشاملة .

الحرية الفــردية المطلقة

كثير من الفلاسفة يرى أن الحديث عن الحرية الفردية المطلقة نافلة من القول ، والا فحرية الفرد يجب أن تــكون مقيدة ، ان لم ترد لها أن تصبح فوضى .

وأما الاسلام فهو يرى أن الأصل فى الحرية الاطلاق ، واننا حين نتحــدث عن الحرية ، من حيث هى ، وفى أى مستوى كانت ، انما نتحدث عن الاطلاق ، من حيث لا ندرى ، ذلك بأن الحرية المقيدة انما هى نفحة من نفحات الاطلاق تضوعت على أهل الأرض بقدر طاقتهم على احتمالها ، فكأن القيد ليس أصلا ، وانما الأصل الاطلاق ، وما القيد الا لازمــة مرحلية تصاحب تطور الفرد من المحدود الى المطلق .

فالحرية فى الاسلام مطلقة ،، وهى حق لكل فرد بشرى ،من حيث انه بشرى ، بصرف النظــر عـــــن ملتـــــه أو عنصره ، وهى حق يقــابله واجب ، فــلا يؤخذ الا بــه ، وهذا الواجب هو حسن التصرف فى الحرية . فلا تصبح الحريه محدودة الا حــين

يصبح الحر عاجزا عن التزام واجبها، وحينئذ تصادر في الحدود التي عجز عنها ، وتصادر بقوانين دستورية .. والقوانين الدستورية في الاسلام هي القوانين التي تملك القدرة على التوفيق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشامله ، فهي لا تضحي بالفرد في سبيل الجماعه ، ولا بالجماعة في سبيل الفرد ، وانما هي قسط موزون بين ذلك .. تحقق حين تطبق ، بكل جزئية من جزئياتها ، مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة في آن معا ، وفي سياق واحد . وانما كان الاطلاق في الاسلام أصلا لأنه لا يرى لترقي الفرد حدا يقف عنده ، فهو عنده ساير من المحدود الى المطلق ، أو قل مسير من النقص الى الكمال ـ والكمال المطلق . فنهاية العبد في الاسلام كمال الرب ، وكمال الرب في الاطلاق ، والله تبارك وتعالى يقول « وان ليس للانسان الا ما سعى * وان سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن الى ربك المنتهى » يعني منتهى السير .. وليس السير الى الله بقطع المسافات ، كما قلنا آنفا ، وانما هو تخلق العبد بأخلاق الرب ، والله تعالى يقول « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » اردت أو لم ترد لقاءه ، وأين يكون لقاؤه ؟ أفي أرضه أم سمائه ؟ لقد قال جل من قائل « ما وسعني أرضي ولا سمائي ، وانما وسعني قلب عبدي المؤمن . » فأنت اذن انما تلقاه فيك . وبه لا بك .

وفي ذلك قال المعصوم « تخلقوا بأخلاق الله ، ان ربي على صراط مستقيم » ..

والله تعالى يقول « كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب، وبما كنتم تدرسون » .

والذي يجعلنا عاجزين عن الوفاء بواجب الحرية الفردية المطلقة انما هو الجهل ، ونحن ، لفرط جهلنا ، نحب جهلنا ، ونكره المعرفة ، الا اذا جاءت عن طريق يناسب هوانا . « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» .. «وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم» تشير الى أنانيتنا .. فنحن نحب أنفسنا ، ونحب كل ما يصدر عنها من حماقات . وكل فرد بشري هو ، بالضرورة التكوينية ، أناني .. وكماله انما يكمن في هذه النشأة الأنانية ..

وأنانية كل أناني على مستويين .. مستوى الأنانية الضيقة ، المتسفلة ، الجاهلة ، ومستوى الأنانية الواسعة ، المتسامية ، العاقلة .

فالأناني الجاهل قد يرى مصلحته في أمور تخالف مصالح الجماعة ، واذا اقتضى الأمر فهو قد يضحي بمصلحة الجماعة ليصل الى ما يظنه مصلحته هو .. والأناني العاقل لا يرى مصلحته الا في أمور تستقيم مع مصالح الآخرين ، فهو يقول مع أبي العلاء المعري : ـ

ولو انى حبيت الخلد فردا * لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى * سحائب ليس تنتظم البلادا

وملاك هذا الأمر التعليم الرشيد فى عبارة المعصوم حين قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ومنذ هذه اللحظة وضع الاسلام نفسه ضد الأنانية الجاهلة ، ومع الأنانية العاقلة « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » هواه يعنى أنانيته الجاهلة .. « ان أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » . « نفسك التى بين جنبيك» تعنى نفسك السفلى، أو نفسك الدنيا ، فى مقابلة نفسك العليا ، أو نفسك الأخرى ، التى يرجع اليها كاف الخطاب فى « ان أعدى أعدائك » فكأنه قال أن أعدى أعداء نفسك الأخرى نفسك الدنيا .. ولأمر ما كثر التعبير فى القرآن بكلمتى الدنيا والأخرى .

وكل ذلك يعنى الأنانية الجاهلة فى مقابلة الأنانية العاقلة .. .. وقول الله تعالى « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » يعنى للنفس العليا ، وكذلك قوله « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها » .

وما دمنا فى منطقة الأنانية الجاهلة ، فان حريتنا لابد تقيد ، لمصلحة مجتمعنا ، ولمصلحتنا نحن أيضا ، ويجب أن يكون القيد وفق قانون دستورى .. ومن هذا يتضح أن الحرية فى الاسلام على مستويين : مستوى الحرية المقيدة بقوانين دستورية ، وقد

تحدثنا عن القوانين الدستورية ، ومستوى الحرية المطلقة . والحر في المستـــوى الأول ، هو الذي يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، على شرط ألا تتعدى ممارسته لحريته في القول ، او العمل ، على حريات الاخرين ، فان تعـــدى تعرضـــت حريتـــه للمصادرة وفق قوانين دستورية ، جزاء وفاقــا .

والحر في المستوى الثـــاني هو الذي يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، ثم لا تكون نتيجة ممارستـــه لكل أولئك الا خـــيرا ، وبركة ، وبرا بالناس ، وأدنى مراتب الحـــرية لأولى العـــدل ، وأدنى مراتب الحرية الثانية العفو ، وصاحب هذه لا يطوى ضميره المحجـــب على ضغن على أحد ، ذلك لأنـــه يعلم أن الجريمـــة انمـــا تبدأ في الضمير ، ثم تبرز الى حيز القول ، ثم الى حيز العمل . والله تعـــالى انمـــا يعنى هـــؤلاء ، ولا يعنى أولئك ، حين قـــال : « وذروا ظاهر الاثم وباطنـــه ، ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون » وهو أيضـــا يعنيهم حين قال : « قل انمـــا حرم ربي الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن » وهو أيضا يعنيهم حين قال : « وان تبدوا ما في أنفسكم ، أو تخفوه ، يحاسبكم بـــه الله » ..

وأما أصحاب مرتبة الحرية المقيدة فان حديث المعصوم يعنيهم حين قال « ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفوسهـــم ، حتى

يقولوا أو يعملوا »

والحريتــان متداخلتان ،فالأولى منهما مرحلة اعداد للثانية، اذ لا يبلغ الفرد منازلها الا بالتمرس بالمجهـود الفردى فى تربيــة النفس ، بمراقبتها ، ومحاسبتها ،وترويضهــا لتصبــح موكــلة بالتجويد ، كلفه بالاحســان .والمراقبــة تعنى الحضور مع الله دائما حتى لا تتصرف الجوارح فيما لا يرضيــه ، من فكر ، أو قول ، أو عمل ، والمحاسبة تعنى استــدراك ما افلت من ضبــط المراقبة ، ولما كانت الحرية الفردية المطلقة لا تنال الا بثمنها ، وثمنها، كما قررنا آنفا ، هو حسن التصرف فى حرية الضمير المغيب ، وحــرية القول ، وحرية العمل ، فقد طوع الاسلام عبــاداته ، وتشاريعه ، لتبلغ بالفرد هذا المبلغ .

الشريعة فى خدمة الحرية الفردية المطلقــه

شريعة العبادات كلها شريعه فرديه لأن مدارها على الضمــير المغيب ، ولا يطعن فى هذا التقرير ان بعــض العبــادات تؤدى فى جمــاعه . وفى الحــق ، ان كل أعمال الاسلام فى العبــادات ، والمعــاملات ، تركز على الضمير تركيزا أساسيا ، ومن ههنا جاء قول المعصوم : « نية المرء خير من عمله » . فالنيــة تجرى من العمل مجرى الروح فى الجسد ،فاذا خرجت الروح من الجســد فسد ، وتحلل ، وأصبح هبــاء منثــورا ، والى ذلك الاشــارة الكريمة بقوله تعالى « وقدمنــا الى ما عملوا من عمل فجعلنــاه

هباء منثورا » ذلك لأنه عمـل لا روح فيه ، أو قل لا نية صالحة لوجه الله وراءه .

والخطيئة انما تبدأ في الخاطر ، والخاطر هو حديث الضمير ، فاذا كان الضمير المحجب ينطوي على اثـم فان خواطـره تكون شريرة ، ثم لا تلبث هذه الخواطر أن تلح على صاحبها حتى ينطلق بها لسانه ، فيكون كلامه شريرا ، ثم لا يلبث هذا الكلام الشرير ان يلح على صاحبـه حتى يبرز الى حيز العمل ، فيكون عمـله شريرا أيضا ، فاذا كان الفـرد يمكر بالشر في ضميره المغيب ، ويتحدث بالشر ، وتتحرك أعضاؤه بعمل الشر ، فقد وجب ان تسحب حريته ، وان تصادر ، بيد ان هذه المصادرة يجب أن تكون لمصلحته هو أولا ، ثم لمصلحة الجماعة في المكان الثاني ، وهي انما تكون لمصلحته اذا كان انما يفيد منهـا تربية تجعله أهلا لاسترداد حريته من جديد ، مع المقدرة على حسن التصرف فيها .

ومما لا شك فيه ان التشريع ، سـواء كان تشريع عـادة ، او تشريع عبادة ، انما هو منهـاج تربوي يرتفـع ، بالمجتمعـات وبالأفراد ، من ، الغلظة ، والجفوة الى اللطف والانسانية ، وكلمـا كان النـاس غـلاظ الأكبـاد ، بليدي الحس ، كلما شدد عليهم في التشريـع ، وكبلـوا بالقيود والأثقال . فلو أن الناس رعوا ما عليهم ، حق رعايته ، لما اعتوافي أمر من أمور معاشهـم ، ولا أمور معادهم ، والله تبارك وتعالى يقول « ما يفعل الله بعذابكم ان

شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكرا عليما ؟» لكن حاجة الناس الى التربية، والتأنيس، والترويض، هي التي حرمت المحرمات، وهي التي عزمت العزائم ، وجاءت المحرمات والعزائم وفق الحاجة اليها .

وقد تحدثنا عن التشديد على الفرد عند نشأة المجتمع البشرى في سحيق الآماد بما يكفي ،فاذا جئنا الى العصور الحديثه ، عصور الديانات الكتابية التي نعرفها ، نجد أن القاعدة تطرد ولاتتخلف ، فهذا القرآن يحدثناعن اليهود فيقول « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، وأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » ويقول أيضا عنهم ، « واذ قال موسى لقومه يا قومي انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم ،فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، انه هو التواب الرحيم » .

فلغلظة أكبادهم ، وبلادة حسهم ، شدد عليهم ، فحرمت عليهم الطيبات ، وفرض عليهم ،في التوبة ، ان يقتلوا أنفسهم قتلا حسيا ، وهو بسبيل مما تحدثناعنه في أمر التضحية بالفرد البشرى على مذابح العبادة في أول النشأة .

ولما تقدم الفرد البشرى هونا ما ، وأصبح لا يحتاج كل ذلك التشديد ليتربى ، خفف عنه ،فجاء التشريع في حق الأمة المحمدية يقول « قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه،

الا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فان ربك غفور رحيم » وقال في حقهم أيضا ، « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، الا أن تكون تجارة ، عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم أن الله كان بكم رحيما» .

فضاقت دائرة المحرمات في التشريع الأخير ، واختصرت الى أربعة ، كلها خبيث ، ثم تجاوز حتى عن هده الأربعة للمضطر ، اذا لم يكن باغيا ، ولا عاديا على أحد .

ونهى عن قتل النفس ، حين أصبحت تستجيب بأقل من هذا العنف فقال « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما» وهو انما كان ، في شريعته ، بنا رحيما لأننا أصبحنا رحماء « كما تدين تدان » .

وتواصل القاعدة أطرادها في المزيد من التخفيف على الناس كلما أصبحوا من رهافة الحس بحيث لا يحتاجون الشدة ليتعلموا .. ويبلغ من أمر هذا التخفيف ان ينتقل التحريم من الأعيان الحسية الى صور السلوك المعنوية ، فاسمع القرآن الكريم يحدثنا فيقول : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا ، في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل انما حرم ربي الفواحش ، ما ظهر منها

وما بطن ، والأثم ، والبغى بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » ويقول ، « وما لكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، الا ما اضطررتم اليه ، وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، ان ربك هو أعلم بالمعتدين * وذروا ظاهر الأثم وباطنه ، ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون » .

فاذا المحرم حقا ، وفى آخر الأمر ، هو عيب السلوك ، ونقص الأخلاق ، وانما حرم المحسوس من الأعيان المحرمة كوسيلة لشفاء النفوس من عيوب السلوك ، ومن نقص الأخلاق ، وذلك على القاعدة الحكيمة التى تطالعنا بها هذه الآية الكريمة ، « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » وحين ينسحب التحريم من الصور الحسية الغليظة الى الصور المعنوية الدقيقة فى عيوب السيرة بين الناس ، يواصل هذا الانسحاب حتى يصل خفايا السريرة ، وما يحوك فيها من خواطر الأثم ، وحين قال « وذروا ظاهر الاثم وباطنه » انما جاء الأمر بترك ظاهر الاثم فى مكان الوسيلة ، وجاء الأمر بترك باطن الأثم فى مكان الغاية . فكأنه قال . أتركوا ظاهر الاثم لتتمكنوا من ترك باطنه ، لأنه هو مصدر كل الشرور .. ويصل القرآن بمطاردة الاثم الى أغوار السريرة

حين يقول « وان تبدوا مـا فى أنفسكم ، أو تخفوه ، يحاسبكم به الله » وحين يقول « وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما » والظلم هنا الشرك الخفى ، واليه يرجع كل الشر ، فى جميع صـوره ، وانما يكون الشرك الخفى فى سر السريرة ، وأخفى منه ما يكون فى سر السر ، كما يقول أصحابنـا الصوفيـة والقرآن فى ذلك يقول « وان تجهر بالقول فانـه يعلم السر ، وأخفى » أخفى من السر ، وهو سر السـر . فأسلوب القرآن فى شفاء النفوس من الخطيئة أسلوب عكسى ، يبدأ من الخارج ، ويسير الى الداخل . « سنريهم آياتنـا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » قوله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » يعنى ، فى جملة ما يعنى ، أن السالك فى طريق الله ، يراقب نفسه ، فى أول أمـره ، ويحاسبها ، لتترك عيوب العمل ، فى حين انها متورطة ، فى هذه الاثناءة ، فى عيوب القول ، ولكنه يسمح بذلك كنوع من التدريج للنفس ، ثم هو ، ان استقام لـه أمر نفسه فى ترك عيوب العمل ، وكان ذلك منها فى سلاسة بينة وانقياد ، زحف بها الى تكليفها ترك عيوب القول ، فى حين انها متورطة ، فى هذه الاثناءة ، فى عيوب الخواطر ، فهى مشوشـة الخواطر ، كثيرة الثرثرة الباطنية ، ولكنه يسمح لها بذلك سياسـة لها وتدريجا ، اذ كلفها أمرا شاقا فى ترك ثرثرة اللسان ، ثم هو ، ان استقام له أمره على ما يجب فى ضبـط لسانه ، بعد ضبـط جوارحه ، يكون كل أولئك قـد

ترك أثراً حميداً في تهذيب الخواطر فيصبح عليه ان يزحف نحوهـا في ثبات وثقة ، يهذبها بعد تشويش، ويسكنها بعد جيشـان ، فان هو استقام له أمره على خير مـا يحب ، وسـلم صـدره من الوسـاوس وكشفت السريرة ،فقديداً ، بصورة جلية ، الأسلوب الطردى ، بعد أن وصل الأسلوب العكسى الى هذه المرحلة المتقدمة، ويجيء دور قوله تعالى من الآية السالفة الذكر : « أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟ »ويكون أغلب نظر الانسان بعد ذلك الى داخـله بعـد أن كان مشغولا ومهووسا بالخـارج .
وعند ذلك توشك المطابقـة ان تتم بين السيرة والسريرة ، فان نقاء السريرة ينعكس في استقامة السيرة ، ويبلغ صاحب هذه السيرة عتبة الحرية الفـردية المطلقة .وكلما تنقـت السريرة ، كلمـا استقامت السيرة ، فضاقت لذلك دائرة المحرمات ، وانداحت دائرة المباحـات ، على قاعـدة الآية الكريمة ، « ما يفعل الله بعذابكم ان شـكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكرا عليما ؟ » فـاذا استمـر السير بالسائر الى نهايته المرجوة،وهى تمام نقاء السريرة ، وكمال استقامة السيرة ، عادت جميـع الأعيان المحسوسة الى أصلهـا مـن الحـل ، وانطبقت الآيـة الكريمة ، « ليس على الـذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا،وآمنوا، وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا ،وآمنوا ، ثم اتقوا ، وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » .

وهذه مرتبه متقدمة مـن مراتب الحـرية الفردية المطلقة ، التى قد طوع كل تشريع الاسلام ليبلغها الأفراد ، ومن أكبر آيات هذا التطويع ان التشريع كله ،وفى كل صـــوره ، مبنـى على المعوضه ، أو على القصاص «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب، لعلكم تتقون » والقرآن أيضـا يقول ، « ليس بأمـانيكم ، ولا امانى أهل الكتاب ، من يعمـل سوء يجزبه ، ولايجد لـه مـن دون الله وليا ،ولا نصيرا » ويقول « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين ، ان شاء ، أو يتوب عليهم ، ان الله كان غفورا رحيما » ويقول « مـن يعمـل مثقال ذرة خيرا يره * ومـن يعمل مثقـال ذرة شرا يـره »وهاتان الايتان هما قوام الأمـر كله ،فى مبنى الشريعة ، وفى مبنى الحقيقة .. يعنى فى عقوبة الدنيا أو ثوابها ، وفى عقوبة الآخرة أوثوابها .

والقرآن يقـول « ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعـد للكافرين عذابا أليما » فسئـل عنها شيخ الطـائفة الصوفيـة ، أبو القاسم الجنيد فقال « يسأل الصادقين ، عند أنفسهم ، عـن صدقهم ، عند الله . » والصدق عند الله مطلق ، والصدق عنـد الخلق نسبى ،فيجزى كل صاحب صدق بما يبلغ صدقه بالقياس الى الصدق المطلق . كما قال«ليجزى الصادقين بصدقهم»وهذا الجزاء قصاص فى الشريعـة ، وقصاص فى الحقيقة أيضا ، كما وردت الى ذلك الاشارة «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » حياة هنا

تعني زيادةمعرفة • فحين تجارون بالخيرعلى ما عملتم من خير ،على قاعدة الحسنة بعشر أمثالها ، أوتضاعف ، وحين تعاقبـون على السيئة بمثلها ، أو يعفى عنـها ،تريـدون حيـاة على حيـاتكم السابقة ، بارتمـاع مداركم ،وصفاء عقـولكم ، وبسـلامـة قلوبكم •

وهذه الزيادة فى المدارك ،لدى القصاص فى الشريعـة ، لا تحتـــاج الى عميق فكر ، فهى ظاهرة ، وذلك ان الفرد لايتعدى على حريـات الآخرين ، أثنـاءممارسته لحريتـه ، الا لجهـل ، وغباء ، وقصور تخيل • • فمن قلع عين أحد ، أثناء ثورة غضب، مثلا ، لا يفعل ذلك وهو متخيل تماما لمبلغ الألم ، وفداحه الضرر، الذى يلحقه بضحيته • فاذا مـااقتص منه ، فوضع فى مـوضع الضحية ، وقلعت عينه معاوضـةمنه لفعلـه ذلك ، فقـد تحقق غرضان فى آن معا ، أولهما حفظ حق الجماعة ، بردع المعتدى فى نفسه ، وبجعلـه نكالا لغـيره ،وثانيهما احرار حاجة الفرد الى سعة التخيل ، حيث أعطى الفرصةليعيش التجربـة الاليمـة التى فرضها على غيره لقصر فى تخيلهشدة الألم ، وفداحة الخسارة ، اللذين تسبب فيهما ، وانه لممـا لاريب فيه ان مثل هذه التجربة الأليمة تجعـل من يتعرض لهـاأكثر انسانية ، فى مقبل أيامـه ، منـه فى سابقتها ، فهو لا يمكن ان يسقط مـن اعتباره نتـائج تصرفه على الآخرين • وهو ، على أيسر تقـدير ، سيكف أذاه

عن الآخرين ، وقد يحتمل أذاهم أيضا ، وسيكون ، على التحقيق، كثير الاعتبار لهم ، حين يتصرف،وقد يقوده هذا الصنيع ، معانا بالمبادة ، الى الكلف بتوصيل الخير اليهم ، وهو خليق ان يجد فى ذلك رضا نفسه ، وطمأنينة قلبه . فأن هو بلغ ذلك فقد وقف على أعتاب الحرية الفردية المطلقة ،بفضل ما أصاب من الوعى وسعة التخيل اللذين أفاده اياهما القصاص . وان هو لم يبلغ هذا المبلغ فحسبه ان يكون واعيا الحدود حريته وحدود حريات الآخرين ، وفى ذلك خير كثير . والمعاوضة فى حد الزنا تقوم على الرجم ، أو على الجلد ، حسب مقتضى الحال ، وذلك ان الزانى حين ذهب يبحث عن اللذه ،حيث كانت ، ومن غير اعتبار لشريعة ، أذيق الألم ليرده لصوابه . فان موقع الألم من وادى النفس يقوم على العدوة القصوى ، حين تقوم اللذة على العدوة الدنيا، وفى شد النفس الى الألم ، حين تتهافت على اللذة المحرمة ، اقامة للوزن بالقسط مما يعينها على الاعتدال ،ويجعلها أبعد من الطيش والنزق .

وحد الخمر يقوم على نفس الأصل ، وذلك ان صاحب الخمر حين يسعى فى الغاء عقله ، انما يريد أن يهرب من واقعه ليعيش فى دنيا من صنع أوهامه ، واخيلته المريضة ، فأريد بألم الجلد أن يرده الى واقعه المرير ليعمل عقله فى تغييره ، فان الواقع لا يتغير بالهروب منه ، وانما يتغير بمواجهته ، وأعمال الفكر فى

تغييره ، والله تعالى يقول « ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ثم ان العقل ، وبه وحده استحق الانسان الكرامة على الحيوان ، هو الابن الشرعى للقاح اللذة بالالم ، منذ سحيق الآماد ، وعبر رحلة الحياة الشاقة ، فاذا خاف عليه صاحبه ، فى لحظة من لحظات الضعف ، فأن فى لذع الألم لما يعينه على استعادة مكانه من قيادة السفينة فى خضم الحياة الصخاب ، حتى يبلغ بها بر السلامة .

وقانون المعاوضة ـ القصاص ـ قانون ينبع من أصل فى الحياة أصيل . فهو ليس قانون دين بالمعنى المألوف فى الأديان ، ونحن حين نقرر ان تشاريع الاسلام مبنية على القصاص ، انما نعنى الاسلام فى حقيقته ، لا فى عقيدته ، والاسلام فى حقيقته ليس دينا بما ألف عن الأديان ، وانما هو علم ، وما مرحلة العقيدة فيه الا مرحلة انتقال الى المرحلة العلمية منه .. مرحلة الشريعة فيه مرحلة انتقال الى مرتبة الحقيقة حيث يرتفع الأفراد ، من الشريعة الجماعية ، الى الشرائع الفردية ، التى هى طرف من حقيقة كل صاحب حقيقة .

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ ، ❋ انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعا

بصيرا » .. « هل » تعني هنا قد و« الانسان » تعني جنس الانسان .

« لم يكن شيئا مذكورا » تعني أنه كان يتقلب في المستويات الدنيا من الحياة ، لم يظهر فيه العقل ، الذي عليه ابتنى التكليف ، وبه رفع الذكر . و « نطفة امشاج » تعني الماء الصافي المخلوط بالطين ، ومنه نشأت الحياة في ظلمات الدهر .

ومن قوله « نبتليه » فهو روح الآية ، لانه يشير الى الصراع في البيئة الطبيعية بين الحي والقوى الصماء . وبينه وبين اخوانه في الحياة . وهو ما سبق الاشارة الى جانب منه ، حين تحدثنا عن نشأة المجتمع البشري ، وهذا الصراع ، قبل ، وبعد نشأة المجتمع البشري ، كان ولايزال ، قانونه المعاوضة « القصاص » .

قوله « فجعلناه سميعا بصيرا » اشارة الى العقل ، والى كون العقل وليد الصراع الذي يهدي قانون المعاوضة « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ووردت بعد الآيتين السالفتين من سورة الدهر الآية « انا هديناه السبيل ، اما شاكرا ، واما كفورا » . . « اما شاكرا » تعني مصيبا ، « واما كفورا » تعني مخطئا ، وهكذا يرتجج العقل في ارجوحة الخطأ والصواب . وفي ذلك كماله « ان لم تخطئوا وتستغفروا ، فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم » كما قال المعصوم .

وقانون المعاوضة على مستويين : مستوى الحقيقة ،

ومستوى الشريعة ، وبينهما اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع .. فقانون المعاوضة فى مستوى الحقيقة قوامه قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وقانون المعاوضة فى مستوى الشريعة قوامه قوله تعالى« وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

وقانون المعاوضة فى مستوى الحقيقة هو الارادة التى بها قهر الله العوالم فأبرزها الى الوجود وسيرها الى الكمال ، وهو الحق الذى ورد كثيرا فى القرآن «ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما انذروا معرضون » وهو يقول أيضا . « خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون » ويقول « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » فالحق هو هذا القصاص الذى تحكيه أحكم حكاية الايتان ، «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وعبارة «لاعبين» فى الاية السابقة تشير الى ما تشير اليه الايتان من قوله تعالى ، « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق ، لا اله

الا هو رب العرش الكريم »وتعني ان العوالم لا بد راجعة الى الله بفعل قانون المعاوضة هذا « ليس بأمانيكم ، ولا أماني اهل الكتاب ، من يعمل سوء يجز به ،ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . »

وقانون المعاوضة في مستوى الشريعة محاكاة محكمة لقانون المعاوضة في مستوى الحقيقة ،وهو يسير معه سيرا مصاقبا ولكنه ، في سبحاته العليا ، أكمل منه وأدق ، وهو يقع على ثلاث مستويات ، ويحكيه قوله تعالى« ان الله يأمر بالعدل ، والاحسان ، وايتاء ذي القربى »والعدل هو القصاص في مستوى «العين بالعين ، والسن بالسن »،«فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .والاحسان هو العفو عن المسيء، «فمن تصدق به فهو كفارة له »كما ورد في آية القصاص ، «وايتاء ذي القربى » تعني صلة الرحم في معناها الواسع ، وهو رحم الحياة . وهذه المستويات الثلاث تحكيها هذه الآية «وجزاء سيئة سيئة مثلها،فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » قوله « جزاء سيئة سيئة مثلها » مستوى العدل من درجة التناصف ، وانما سماها سيئة ليرغب عنها ، حيث أمكن ذلك « ولمن صبر وغفر ، ان ذلك لمن عزم الأمور » وأما قوله «فمن عفا»فهو مستوى الاحسان بترك المسيء ، وهو فوق العدل . واما قوله « وأصلح »فهو يعني المرحمة بالمسيء ، والتعطف عليه،

والتلطف به ، والمحبة له ، وذلك قمة الصلاح والاصلاح ، وهو أعلى مستويات قانون المعاوضة فى الشريعة .

ولما كان قانون المعاوضة ،فى مستوى الحقيقة ، مرادا به تسيير العوالم الى الله عن طريق الجسد — عن طريق القهر ، فان قانون المعاوضة ، فى مستوى الشريعة ، مراد به تسيير البشر الى الله عن طريق العقل — عن طريق الحرية ، وفى ذلك الكرامة، كل الكرامة ، للانسان . وفى هذا المقام يجيء حديثنا عن العلاقة بين الانسان والكون .

الفرد والكون فى الاسلام

والعلاقة بين الانسان والكون ظلت مادة التعليم والتعلم ، من لدن فجر الحياة البشرية والى يوم الناس هذا ، ولقد استعان الانسان على استجلاء حقيقة هذه العلاقة بالدين ، وبالعلم المادى ، منذ النشأة ، فالدين والعلم المادى توأمان ، ولدا فى وقت واحد ، ودرجا معا ، وظلا يتعاونان فى مدارج النمو . ولقد كان ميدان العلم المادى لدى الانسان الأول ضيقا جدا ، وميدان الدين واسعا، فهو قد اعتنق جميع مظاهر الحياة المادية فى البيئة الطبيعية ، وفيما وراء المادة بالقدر الذى تعطيه الأحلام فى النوم ، وتوحيه الأوهام فى اليقظة ، وهو لم يترك فى حيز العلم المادى الا أشياء قليلة أوحى طول الألفة بأنها لا تحتاج الى كثير احتفاء . كان الانسان يشعر أن لكل شيء فى الوجود روحا ، ورسخت الأحلام فيه هذا

الشعور ، حتى لقد أصبح يصلي لكل شيء .. يصلي للصيد ، ويصلي لزراعه ، ويصلي للحصاد، ويصلي لتناول الطعام ، ويصلي للسلاح .ثم أحدث الالة والعادة بعمل عملهما ، في رفع الرهبة والقداسة عن الأشياء التي اعتادها وقدر عليها ، فدخلت في منطقة علمه التجريبي ، وأحدث بذلك دائرة العلم تزيد ودائرة الدين تضيق ، حتى جاء الوقت الحاضر، حيث يزعم بعض المغرورين بالعلم

الحديث ان الدين لم تعد له مكانة في حياة الانسان المتحضر ، وما كفر العلم ، ولكن بعض العلماء كفروا ، برسالة العلم ، وبرسالة الدين معا . ذلك بأن العلم لم يدع انه يبحث عن جوهر الأشياء وحقائقها ، وانما هو يبحث عن ظواهرها وقوانين سلوكها ، فهو يعرف خصائص الكهرباء ولا يعرف كنه الكهرباء . بل ان العلم نفسه قد قرر ان المادة ، كما نعرفها، انما هي مظهر لأمر وراءها لا نعرف حقيقته . فقد قال اينشتاين ان المادة والقوى شيء واحد ، وجاءت التجارب في انفلاق الذرة بتأييد هذا القول ، فالقوى غير معروفة الكنه ، وان كانت بعض القوانين التي توجه سلوكها معروفة .

وفي الحق ان العلم الحديث داع الى الله بلسان بليغ ، فهو يرينا كل يوم ، كيف ان العالم المحسوس ، اذا أحسن استقصاؤه، يسوقنا الى عتبة عالم وراءه ،غير محسوس ، أو قل لا تدركه الحواس على النحو المألوف ،ثم يتركنا هناك وقوفا ، في خشوع واجلال ، نلتمس وسائل غير وسائل العلم التجريبي

المادى ، بها نهتدى فى مجاهيل الوادى المقدس ، الذى يقع وراء عالم المادة التى نعرفها .

ان أرباب القلوب قد سمعوا ان الظواهر المادية تنادى الى الله بصوت عال يقول : انما نحن فتنة فلا تكفروا ! وان مطلوبكم أمامكم فلا تقفوا معنا !

قد أنى للانسان أن يعلم أن البيئة التى يعيش فيها انما هى بيئة روحية ذات مظهر مادى، وهذا اكتشاف جديد أفاده تقدم العلم المادى الأخير ، وهو اكتشاف يواجه الانسان المعاصر بتحد حاسم ، ذلك بأن عليه أن يوائم بين حياته وبين بيئته هذه القديمة الجديدة ، ان كان لابد له أن يستمر حيا .

لقد كان الانسان الأول أحكم منا ، فى موقفنا الحاضر ، حين ظن ، أو قل علم ، ان لكل شىء فى الوجود روحا ، والآن، وقد استدار الوجود دورة تامة، فان التاريخ سيعيد نفسه فى الأيام القليلة المقبلة ، وهو ، كما قررنا فى مستهل هذا السفر ، لن يعيد نفسه بصورة واحدة ، وانما يعيدها بصورة تشبه من بعض الوجوه ، وتختلف من بعضها ، عما كان عليه الأمر فى سابقه ، وسيكون وجه الشبه ، فى الدورة الجديدة ، علمنا ان بيئتنا روحية الجوهر ، مادية المظهر ، وسيكون وجه الاختلاف ان أدراكنا هذا لن يكون ادراكا ساذجا ، جاهلا ، وانما هو ادراك حاذق ، عالم ، به يعود الدين ليحتفل كل نشاطنا ، فى كل صغيرة وكبيرة .. يعود علما يتقدم بمنهاج للحياة متكامل،

يخاطب العقل ، ويحترمه ، ويحاول اقناعه بجدوى ممارسة منهاجه في الحياة اليومية ، في كل مصطربها ، لأمر معاشها ، وأمر معادها .

لقد جاء الانسان الى هذه الحياة ولم يكن له في أمر مجيئه تدبير ، ولا اختيار ، وهو يغادر هذه الحياة ، يوم يغادرها ، وليس له في ذلك تدبير ، ولا اختيـار .. والله تعالى يحدثنا في ذلك فيقول ، جل من قائل : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونـا العظام لحمـا ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم انكم بعد ذلك لميتـون * ثم انكم يوم القيامة تبعثون » وهذه الصورة القرآنية المتكاملة تعطينا صورة لموضعنـا من الكون ، اذ نحن مسيرون فيه كالعناصر الصمـاء تماما ، ولن يكون لنا فضل عليها الا اذا استيقنت نفوسنا أمر هذا التسيير ، ثم اذعنا له ، عن رضا ، وعن استسلام ، وعن علم ، ولقد خلقنا الله مستعدين لتحصيل هذا العلم ، ولقـد أشـار الى هذا الاستعداد بقوله تعـالى « ثم انشأناه خلقا آخر » من الآيات السابقة . وفي موضع آخر جاء البيان الواضح ، حيث قـال : « واذ قـال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » فهذا الخلق الآخر انما جاء من نفخ الروح الالهي فيه .

الارادة

والروح الالهى المنفوخ فى البشر هو الارادة .. والارادة صفة متوسطة بين صفتين .. من أعلاها العلم ومن أسفلها القدرة .. وبالعلم والارادة والقدرة أبرز الله العوالم الى حيز الوجود ، وكذلك البشر انما يعملون أعمالهم بالعلم والارادة والقدرة ، فوقع الشبه بين الخالق والمخلوق ، والى ذلك الاشارة بقول المعصوم : « ان الله خلق آدم على صورته » .

والارادة لله بالأصالة ،وللانسان بالاعارة ، وهى هى الأمانة التى أشار اليها تعالى فى قوله « انا عرضنا الأمانة على السموات ، والأرض ، والجبال،فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها، وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا » .. « ظلوما » بادعائه لنفسه ما لغيره ، و « جهولا »بقدر نفسه ، حين ظن انه صاحب ارادة ، والذى ورطه فى هذا الظلم ، وهذا الجهل ، خفاء الأمر، ودقة مأتاه ، ذلك بأن الله ، جلت حكمته ، سير الغازات ، والسوائل ، والجمادات ، تسييرا قاهرا ومباشرا ، « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء ، وهى دخان ، فقال لها ،وللارض ، ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى

كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » .

وهذه هي بيئة الحياة ،فلما تهيأ المكان في الأرض خلق فيها الحياة وأودع فيها « ارادة الحياة » وهي قوة تعمل ، بدوافع حب البقاء ، للاحتفاظ بالحياة .. وقانونها السعي وراء اللذة ، والفرار من الألم ، وأصبح تسيير الله للمخلوقات في هذا المستوى وهو مستوى النبات والحيوان، شبه مباشر ، ومن وراء حجاب « ارادة الحياة » وهي انما سميت بارادة الحياة لأنها تتمتع بما يسمى الحركة التلقائية ، وذلك لأن دوافع حركتها ، وقوى حركتها ، فيما يظهر ، مودعة فيها . وهي حركة يستخدمها الحي في تحصيل قوته ، وفي الاحتفاظ بحياته ، والاحتفاظ بنوعه .

ثم لما ارتقى الله تعالى بالحياة الى مرتبة الانسان ، زاد على « ارادة الحياة » عنصرا جديدا هو « ارادة الحرية » ، وهي انما تختلف عن ارادة الحياة اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع . ثم سير الله تعالى البشر من وراء ارادة الحياة ، ثم من وراء ارادة الحرية، وأصبح بذلك تسييره ايانا غير مباشر، وتدخله في أمرنا هو من اللطف والدقة ، بحيث تورطنا في الوهم الأكبر .. فاعتقدنا أننا نملك ارادة حرة مستقلة بالترك أو بالعمل .. واليكم آيات هي آية في الدلالة على لطف تدخل ارادة الله في توجيه ارادتنا « اذ أنتم

بالعدوة الدنيـا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد، ولكن ليقضى الله أمـرا كـان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيـا من حيـى عن بينـة ، وان الله لسميـع عليـم * اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ، ولتنازعتم فى الأمر . ولكن الله سلم ، انـه عليـم بذات الصـدور * واذ يريكموهم ، اذ التقيتـم ، فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى اعينهم، ليقضى الله أمرا كان مفعـولا ، والى الله ترجع الأمور» .. فانظروا الى هذا اللطف اللطيف ، من جانب الارادة الالهية القديمة ، اذ تتـدخـل فى تسيير الارادة البشرية المحدثة !!

فالنبى يرى أعداءه فى منامه قليلين فيصمم على مقاتلتهم ، ولو رآهم غير ذلك ماقاتلهم ، ثم عند اللقاء ، يرى المؤمنون المشركين قليلين فيصمموا على قتالهـم ، ويرى المشركون المؤمنين قليلين فيصمموا بدورهم على قتالهم . والله هو الذى يرى النبى أعداءه فى منامه قليلين ، والله هو الذى يرى كل فريق من الفريقين أعداءه قليلين ، ليقضـى الله أمـرا كان مفعولا . كل ذلك مـن غير ان تزعج «ارادة الحرية» ومـن غير أن تشعر بتدخل خارجى فى أمر من أمورها ، يملى عليهـا ، أو يسلبها حريتها .

خلق الله الانسـان ضعيف البنية ، وبغير مخالب ولا أنياب، ليكون اعتماده على الحيلة أكثر من اعتماده على القوى الجسدية . وجعل طفولتـه طويلـة ليكون اعتماده على الآخرين أكثر مـن

استقلاله بأمر نفسه . وضعف بنيته ، وطول طفولته الجأه ليعيش فى جماعات ، ولقد تحدثنا آنفا عن نشأة الجماعة ، وكيف أنها أقامت العرف الذى يقيد نزوات الافراد ، ولقد كان القتل الذريع جزاء وفاقا لكل فرد يتورط فى مخالفة العرف الذى ارتضته الجماعة ، وقد يكون غضب الآلهة فى انتظار هذا الفرد بعد موته ، ليذيقه من ألوان العذاب فوق ما أذاقته الجماعة ، ولقد كان الخوف من عضب الجماعة ، ومن غضب الآلهة يؤرق الفرد ، وهو لا يزال يعمل عمله فى حمل الافراد على ترك مخالفات القوانين .

وبنشأة المجتمع البشرى البدائى دخل صراع فى البنية البشرية بين قوتين .. بين الحيوان القديم الذى يعمل « بارادة الحياة » ، وقانونها السعى فى تحصيل اللذة بكل سبيل ، وبين الانسان الحديث الذى يعمل « بارادة الحرية » ، وقانونها تحصيل اللذة التى لا تتورط فى غضب الجماعة ، ولا غضب الآلهة ، بمخالفة العرف المرعى ، مما تكون عاقبته ألما باقيا فى الحياة وبعد الممات .

فاذا كانت اللذة المبتغاة لا تنال الا عن طريق مخالفة أمر الجماعة ، وهو دائما أمر الآلهة ، فان اتجاه ارادة الحرية التخلى عن ابتغاء تلك اللذة ، رجاء الحصول على لذة أكبر منها ، من ثواب الجماعة ، ومن ثواب الآلهة ، وذلك خير وأبقى . وبهذا دخلت فى الحياة القيم التى تجعل الفرد البشرى يضحى باللذة

الحاضرة فى سبيل لذة مرتقبة ،أو يضحى باللذة الحسية العاجلة فى سبيل لذة معنوية عاجلة أومؤجلة ، كرضا المجتمع عنه ، وثقته به ، وثنائه عليه ، أو كرضا الالهة عنه ، ومجازاتها اياه ، فى هذه الحياة ، أو فى الحياة المقبلة.

واستمر المجتمع البشرى ينمو ومعه ينمو عرفه وعاداته ، ويتحدد هذا العرف ، ويتخذ صورا دقيقة ، وحاسمة ، ويجىء أنبياء الحقيقة ، ويدخل تشريع لحرام والحلال ، واعتبارات الجنة والنار ، وأوصاف الاله . فان أنبياء الحقيقة ، ورسل الانسانية لم يجيئوا ليقولوا للناس أن لهم خالقا ، فأن ذلك قد سبقتهم اليه رسل العقول . ولكنهم جاءوا ليعينوا العقول على معرفة الخالق بتعليمها أسماءه وصفاته وأفعاله .

وأما أنوار العقول فانها قد نشأت من نار الاحتكاك الذى ظل جاريا بين « ارادة الحياة » و « ارادة الحرية » بفعل الخوف القديم ، الذى دفعته فى قلب الانسان الأول القوى الصماء ، التى زخرت بها بيئته الطبيعية التى عاش فيها .

ولقد قلنا ان ارادة الحرية لا تختلف عن ارادة الحياة اختلاف نوع ، وانما تختلف اختلاف مقدار ، ونعنى أن ارادة الحرية هى الطرف الرفيع ، الشفاف ، من ارادة الحياة .. أو قل هى الروح ، حين تكون ارادة الحياة بمثابة النفس .. فارادة الحياة حواء البنية البشرية ، وارادة الحرية آدمها ، والعقل هو نتيجة اللقاء الجنسى بين آدمها وحوائها هذين . وفى مرتبة اللقاء الجنسى

الذى ينتج العقل فان لارادة الحياة اسما آخر ، هو الذاكرة ، وارادة الحرية هى الخيال . والذاكرة هى حصيلة التجارب السوالف جميعها ، ومن ثم فقد أسمياها النفس ، فى موضع آخر . وقد ورد أن القصاص المراد به تقوية التخيل عند من يحتاج أن يوضع بالقصاص فى موضع ضحيته . والتخيل هو اسم آخر للذكاء ، وهو القدرة الدراكة ، والارادة الكابتة رغائب النفس التى لا يرضى عنها القانون . والذكاء يعمل فى توجيه رغايب النفس بفعل الخوف فيه ـ أو قل بفعل الرغبة والرهبة فيه ـ وهو ، كلما أحسن السيطرة على رغائبها ، كلما زاد قوة ومقدرة على التمييز . وهى قد تزداد مطاوعة ، أو تزداد تمردا ، تبعا لمقدرته هو على العدل ، أو عجزه عنه ، وركوبه مركب العنف والشطط .

واذ ولد العقل فى بيت منقسم ، من أبوين متشاكسين .. أم شهوانية ، جامحة ، شديدة النزوات ، كثيرة الرغايب ، وأب ضعيف ، جبان يسوقه الخوف الى العنف ، فيرد مطالبها فى شدة وصرامة ، قد تبلغ به أن يحيف عليها ويكبتها فى غير موجب للكبت ، فان طفولته لم تكن سعيدة ، بل كانت طفولة مشردة ، حانقة ، كثيرة الجنوح والانحراف ، وقد ظهرت عليه خصائص أبويه ، وأثر فيه جو البيت الذى ولد فيه ، فجاء منقسما على نفسه أيضا ، بعضه يقف فى مناهضة بعضه الآخر ، وقديما قيل « البيت المنقسم لا يقوم » .

ولقد ترسب الخوف في أغوار النفس منذ نشأة الحياة ، وقبل ظهور البشر على مسرحها ، ثم نشب الصراع الطويل بين « إرادة الحياة » و « إرادة الحرية » الذى صحب ظهور البشر على مسرح الحياة ، والذى لا يزال يتسعر ضرامه الى اليوم ، ولقد نتج عن هذا الصراع أن بعض الرغائب المحرمة ، والتى كانت تتحرك طليقة قبلا ، قد كبلت بالأغلال ، وكبتت ، وأصبحت حبيسة فى سراديب مظلمة من حواشى النفس . وكل هذه الرغائب أصيلة ، وكثير منها ، لطول ما حبس فى الظلام ، فقد البصر ، وفقد القدرة على الحركة ، ولكنه لم يمت ، وهو ينتظر أن يخرج عنه ، من هذا المحبس يوما من الأيام .

فالنفس البشرية اليوم معرضة لآفات كثيرة .. خوف ترسب فيها قبل أن تصبح بشرية ، وذلك بين فجر الحياة البدائية الأولية ، وعهد ظهور البشر على المسرح ، وكبت موروث منذ ظهور المجتمع البشرى ، والى أن يولد أحدنا ، ثم كبت مكتسب فى حياة الفرد ، بين ميلاده ووفاته ، حيث يتسلط القانون ، والعرف ، والرأى العام على تكبيل رغائبه التى لا تجد الموافقة على تحركاتها ، وتعبيراتها فى حرية وطلاقة .

وكل الكبت يفعل الخوف ، فالخوف ، سواء كان الخوف البدائى ، الساذج ، الذى لا مبرر له ، أو كان الخوف العاقل ، الموزون ، المعروف الأسباب ، المعقولها ، قد ترك طابعه على النفس البشرية بصورة مزمنة .

والخوف ، من حيث هو ، هو الأب الشرعي لكل آفات الأخلاق ومعايب السلوك ، ولن تتم كمالات الرجولة للرجل وهو خائف ، ولا تتم كمالات الأنوثة للانثى وهي خائفة ، في أي مستوى من الخوف ، وفي أي لون من ألوانه. فالكمال في السلامة من الخوف.

ولن يتم تحرير الفرد من جميع صور الخوف الموروث الا بالعلم .. العلم بدقائق حقيقة البيئة الطبيعية التي عاش ، ويعيش فيها ، والتي كانت سببا مباشرا لترسيب الخوف في أغوار نفسه، فإن الخوف جهل والجهل لايحارب الا بالعلم .. ومن أجل ذلك وجب الاهتمام باعطاء الفرد صورة كاملة ، وصحيحة ، عن علاقته بالمجتمع ، وعن علاقته بالكون ، وهو ما نحن بصدده منذ حين .

الجبر والاختيار

ومسألة الجبر والاختيار ، أو التسيير والتخيير ، تمثل جماع العلاقة بين الفرد والكون ، وهي مشكلة أعيت دقائقها الفكر البشري في جميع عصوره ، وقد آن لها أن تبرز من جديد ، وأن تستحوذ على كل اهتمام المفكرين، ذلك بأن ضرورة فهمها ، فهما دقيقا ، لا تجيء من قبيل الترف الذهني ، كما قد يتبادر الى بعض العقول . ولا هي مسألة لا تعنينا في أمر معيشتنا اليومية ، أثناء الكسب والصرف ، كما قد يتبادر الى بعض العقول الأخرى ، وانما ضرورة فهمها تجيء من الحاجة الى المنهاج العملي لتحقيق الحرية الفردية المطلقة ، والحرية الفردية المطلقة هي منذ اليوم المركز الذي

منه تتفرع ، وتشع الحرية الجماعية، بجميع صورهـا ، وفى كافـة مستوياتهـا . تتدخـل فى ذلك معيشتنا اليومية ، أثناء الكسب وأثناء الصرف .

والسؤال المزمن هو ، هل الانسان مسير الى مصير مبرم ؟ أم هل هو مفوض اليه ليختار فى أمر مستأنف ؟

لقد قرر المعصوم فى هـذا تقريرا فيه لحاجة المؤمن غناء، كل الغناء ، وذلك حين قال : « من آمن فقد آمن بقضاء وقدر ، ومن كفر فقد كفر بقضاء وقدر ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » ولما قال بعض الأصحاب «ففيم التعب اذن يا رسول الله ؟ » قال «أعملوا فكل ميسر لما خلق له !» فانصرف الأصحاب لعملهم ، واعتصموا بايمانهم ، فعصمهم ووسعهم .« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم، تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » .

فحاجة المؤمن مكتفية بالايمان نفسه ، ولكن حاجة المسلم هى التى تحتاج الى مزيد من العلم يدخل بها مداخل اليقين ، ويحرز لها طمأنينـة القلب . ألم تر الى ابراهيم الخليل « واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قـال بلى ! ولكن ليطمئن قلبى ! قال فخذ أربعة من الطير ، فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبـل منهن جزءا ، ثم ادعهن ، يأتينك سعيا ، وأعلم أن الله عزيز حكيم . »

ولقد خلف من بعد الأصحا ب ، خلف لم يسعهم فى هذا الأمر

ما وسع الأصحاب، فبدا لبعضهم ،وهم أصحاب الرأى ، أن التسيير المطلق مع العقاب على الخطيئـة يشبه قول من قال :

أقـاه فى اليم مكتوفا وقال لـ ـه اياك اياك أن تبتل بالمـاء

وهذا ظلم ، ولمـا كان الله تبارك وتعالى منزها عن الظلم ، ولما كان العقـاب على الخطيئـة ثابتا ، فى الشريعة وفى الدين ، فلم يبق الا أن يكون الانسان متمتعا بشىء من الاختيار ، بـه يستحق العقاب، حين يخطىء ، ويستأهل الثواب ، حين يصيب . وكذلك اعتقدوا ، فتورطوا فى الشرك من حيث أرادوا التنزيه ..ومد لهؤلاء فى غيهم أمران : أولهما أن البداهة ، وظـاهر الأمر ، توحى بأن للانسان اختيارا يبدو فى حركاته الاختيـارية ، فهو يستطيع أن يمشى ، ان شـاء ،أو أن يجلـس ، أو أن يقف ، هذا الى جملة حركات أخرى ،وسكنـات ، كلهـا تقـع تحت اختياره وارادته . وثانيهما أن ظواهر القرآن تقر الانسان على ما أعطته اياه هذه البداهة المماشة .

وهناك أصحابنا الصوفيـة، وهم ، فى عمومهم ، قد حاولوا أن يكتفوا ، من هذا الأمر ، بما اكتفى بـه الأصحـاب ، ولكن حكم الوقت ، والحـاح الفرق الأخرى ، قد اضطر بعضهم أن يقرر أن الانسان مسير ، فى كل صغيرة وكبيرة من أموره ، وانه مع ذلك ، معـاقب بالاساءة ،مجازى بالاحسان . وليس الله ، فى كل أولئك ، بظالم ، لأنه لم يتصرف فى ملك غيره . واضطر البعض الآخر أن يقرر التسيير المطلق مع العقوبة ، ثم خرج عن

مسألة الظلم هذه بقول الله تعالى، « لا يســأل عما يفعــل ، وهم يســألون • »

وأجمع كبار عارفيهم على أن التوفيق بين التسيير المطلق ، وهو أمر يوجبــه التوحيــد ،والعقاب ، والعدل الالهى ، انما يلتمس في حكمة العقاب • ودهبوا في البيان مذاهب كانت وافيــة بحاجة عصرهم ، والعصور التى تلته الى يومنا هذا ، ولكننا مــا نرى أنهــا تكفى حاجة الفــكر الحديث ، منذ اليوم •

القرآن والجبر والاختيار

ولقد بنى أصحــاب الرأى رأيهم على القرآن ، وساقوا منه آيات بينات للتدليل على صدقهم ، ولقد بنى الصوفية ، وهم يقفون من أصحاب الرأى موقف النقيــض مــن النقيــض ، مذهبهــم على القرآن أيضا ، وساقوا منه آيات بينات للتدليل على صدقهــم • ولقد ورطت هذه الظاهرة الغريبة كثيرا من المستشرقين ، ممن عنوا بدراسة القرآن ، في خطأ جسيم ، فظنوا أن بعض القرآن يناقض بعضــا ، وأسرفوا في ذلك على أنفسهــم ، وعلى مواطنيهــم ، والحــق ، في هذا الأمــر ، أن للقرآن ظاهرا وباطنــا ، فظاهره عنى بظواهر الأشيــاء ، وباطنه قام على الحقائق المركوزة وراء الظواهر ، ثم اتخذ ، في نهجــه التعليمى ، الظواهر مجازا يعبر منها العارف الى البواطن ، وهو في ذلك يقول « سنريهم آياتنا ،

فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟ » والظواهر هنا آيات الافاق ، والبواطن آيات النفوس . وأبواب العقل على آيات الآفاق هى الحواس ، والحواس قد جاءت كلها مثانى ، من يمين وشمال ، على تفاوت فى القوة بينهما ، فينتج عن هذا أن ما تؤديه العين اليمنى ، الى العقل ، من الشىء المرئى ، يختلف عما تؤديه العين اليسرى منه اليه . وليست صحة الأمر بينهما . وهذا يعنى أن تجرى غربلة فى العقل ، بها يتخلص مما يسمى خداع الحواس ، ويخلص الى الأمر على ما هو عليه فى الحق .

وكثير من العقول الساذجة لا تملك القدرة على الانعتاق من أسر الحواس ، والعقول ، على اطلاقها ، شديدة الاعتماد على معطيات الحواس ، ولما كان القرآن كتاب عقيدة ، وشريعة ، وحقيقة ، ولما لم تكن الى حقيقته من سبيل الا عن طريق عقيدته ، فشريعته ، ولما لم يكن من مصلحة العقيدة أن تصادم دعوتها ما تعطيه البداهة المشاهدة بالعين ، فانه جاءنا بظاهر يجارى الوهم الذى اعطتنا اياه الحواس عن عالم الظاهر ، وبباطن يرتكز على الحق الصراح . وهو ، بمجاراتنا فى وهمنا ، انما أراد أن يدفع عنا المشقة ، حيث لم يكن موجب للمشقة ، ريثما ينقلنا ، على مكث ، الى الحق . ولنسق على ذلك مثلين : مثلا فى مستوى مجاراة وهم الحواس ، وهو وهم غليظ ، ومثلا فى مجاراة وهم

العقل ، وهو وهم دقيق : فأما المثل الاول ، فأن القرآن عند ما جاء يدعو الى العقيدة قوما يرون بأعينهم ان الأرض مسطحة ، لم يشأ ان يجمع عليهم ، الى مشقة الدعوة الى عقيدة فى الاله جديدة ، مشقة الدعوة الى فكرة جديدة ، عن الأرض ، تناقض البديهة المرئية بالعين ، فجاء فى سياقه بآيات عن الأرض لم تزعج المدعوين عما ألفوا من أمرها ، فقال « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون » وقال « ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا ؟ » وقال « والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها » وقال « والأرض مددناها ، والقينا فيها رواسي ، وانبتنا فيها من كل شيء موزون » ، فاذا دخلوا فى العقيدة ، وعملوا بالشريعة ، تبين لهم ان الأرض ليست مسطحة الا فيما ترى العين ، وليس الى الحقيقة من سبيل اذا أسقطنا ما ترى العين ، كل الاسقاط ، من حسابنا ، كما أنه ليس الى الحقيقة وصول اذا ظللنا أسرى أوهام الحواس ، وانما الرشد ان نجعل ما ترى الابصار مجازا الى ماترى العقول ، وما ترى العقول مجازا الى ماترى القلوب ، وهو الحق ، ثم هو الحقيقة ، فى القيمة بعد القيمة .

والمثل الذى يجارى وهم العقل تعطيه هاتان الآيتان ، « لمن شاء منكم ان يستقيم * وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين » فأن السالك المجود ، وهو فى اول الطريق ، اذا قرأهما

فهم من أولاهما ان له مشيئة مستقلة تملك ان تستقيم ، كما تملك ان تلتوى ، ولم يفهم من ثانيتهما الا ما تعطيه اللغة،ويجتهد فى سبيل الاستقامة فى تشمير وجد ، حتى اذا نضجت تجربته بالمجاهدة ، ومصابرة النفس ،علم يقينا انه لا يملك مع الله مشيئة ، واصبح الخطاب فى حقه ، ساعتئذ ، قوله تعالى «وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين » ويعرف أن قوله تعالى « لمن شاء منكم أن يستقيم » قد أصبح فى حقه منسوخا ، بعد أن تخلص من وهم عقله . هذا هو الفهم الأكبد للحكمة التى من أجلها جاءت هذه الآية الكريمة .

فالقرآن ساق معانيه مثانى .. معنى قريبا فى مستوى الظاهر، ومعنى بعيدا فى دقائق الباطن ،ولكن أصحاب الرأى لم يفطنوا الى ذلك ، فجعلوا الآيات التى تجارى أوهام الحواس ، والتى تجارى أوهام العقول ، سندهم،وبنوا عليها علمهم ، فضلوا كثيرا ، وأضلوا .

وأما الصوفية فقد تفطنوا الى ذلك ، وعلموا أن أوهام الحواس ، وأوهام العقول ،يجب التخلص منها بأساليب العبادة المجودة ، التى تبلغ بهم منازل اليقين المحجبة بحجب الظلمات ، وحجب الأنوار .

القرآن والتسيير

« وننزل من القرآن مـا هو شفاء ورحمـة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خســارا » ومن الظالمين من يعتمـد على العقل ، فى فهم حقائق الدين ، كل الاعتماد .

والقــرآن قد جعل وكده تركيز فهم التسيير فى العقول ، بالطائفة المستفيضة من آيـاته ، فاذا استقرت مدركات العقول فى طوايا الصدور ، ظهر أن ليس فى القرآن حـرف لا يدعو الى وحدة الفاعل .. فوحدة الفاعل هى أصل التوحيد ، وقاعدته ، وبتجويد وحدة الفاعل تتبع كل مستويات التوحيـد الأخرى . وأمر التسيير هو وحدة الفـاعل هذه . فلنستمع الى طائفه من هذه الآيات « هو الذى يسيركم فى البر ، والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبه ، وفرحوا بهـا ، جاءتها ريـح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله ، مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلمـا أنجاهم اذاهم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يأيها النـاس انمـا بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم ، فننبئكم بمـا كنتم تعملون . »

هذا أوضح كلام فى التسيير الالهى للناس ، وقد أشار اشارة لطيفة الى علة الغفلة ، وهى سعة الحيلة ، فأننـا اذا احتلنـا فى

أمورنا ، ونجحت حيلتنا فى حل مشاكلنا ، مد لنا هذا النجاح فى أسباب الغفلة ، فتوهمنا اننا أصحاب ارادة مختارة . والحيلة فى البر أوسع منها فى البحر ، ولذلك قال « هو الذى يسيركم فى البر والبحر » ثم ذهب يفصل أهوال البحر التى تظهر أمامها قلة حيلتنا وعندها « دعوا الله ، مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » فلما جاءت دعوتهم بلسان حالهم أنجاهم ، تبارك وتعالى ، ثم قص علينا ما كان من أمرهم فقال « فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » يعنى لما خرجوا من أهوال البحر ، ووطئوا البر ، واستشعروا القدرة على الحيلة ، رجعت اليهم غفلتهم ، وادعوا الارادة واختيارا . وهو هنا يذكرنا بأن الذى يسيرنا فى البر هو الذى يسيرنا فى البحر ، فيجب ألا نكون من الغافلين .

وقوله تعالى « انى توكلت على الله ، ربى وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربى على صراط مستقيم » وقوله تعالى « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون ؟ » وقوله تعالى « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » وقوله تعالى « تسبح له السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن ، وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، انه كان حليما غفورا » وقوله تعالى

« والله خلقكم وما تعملون » أي خلقكم وخلق أعمالكم . وقوله تعالى « ما أصاب من مصيبة في الأرض ، ولا في أنفسكم ، إلا في كتاب ، من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فأن الله هو الغني الحميد» وفي جميع هذه الآيات حكمة تربوية بالغة ، يستفيد منها من يستيقن أمر التسيير .

التسيير ما هو ؟

أول ما يجب توكيده هو أن الله لا يسير الناس الى الخطيئة ، وانما يسيرهم الى الصواب ، قال تعالى عن لسان هود « اني توكلت على الله ، ربي وربكم ، ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربي على صراط مستقيم . » ومعنى هذا أن الله مسير كل دابة على الصراط المستقيم ، وكل دابة مهتدية ، حالا ، ومآلا ، ما دامت في طاعة الله ، وليس شيء في الوجود ينفلت عن هذه الطاعة ، ولكن الله تبارك وتعالى يريد أن يكون المطيع مدركا لهذه الطاعة ، وبهذا وضع خط فاصل بين الهدى والضلال ، ما دونه ضال ، ومن فوقه مهتد ، وهنا دخل اعتبار الايمان والكفر . وليس الاختلاف بين الايمان والكفر اختلاف نوع ، وانما هو اختلاف مقدار ، فالمؤمن علمه أكثر من الكافر .. أو قل

ان المؤمن يطيع الله وهو عـالم بذلك ، والكافر يطيع الله وهو جاهل بذلك . والله تعالى يقول « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ، وهو العزيز الحكيم » هو يعلم ذلك ولكنهم لا يعلمون، وهو يريد لهم أن يعلموا . و « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ »

ان ارادة الله لا تعصى ، ولكن الله يريد أن ينقل الخلائق من طاعة ما يريد ، الى طاعة ما يرضى ، فانه سبحانه وتعالى أراد شيئاً لم يرضه . فهو تعالى يقول « ان تكفروا فأن الله غني عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وان تشكروا يرضه لكم . » فكأنه يقول ، ان تكفروا فأنكم لم تكفروا مغالبة لله ، وانما كفرتم بإرادته ، ولكنه لا يرضى منكم ما أراده لكم . والرضا هو الطرف الرفيع من الارادة . أو هو قمة هرم قاعدته الارادة ، فالارادة في مرتبة « الثنائية » ، والرضا في مرتبة « الفردانية » ، ففي الارادة يدخل الكفر والايمان ، ولكن بالرضا لا يدخل الا الايمان .

والأمر التكويني أعلى من الارادة ، فقمته رضا وقاعدته ارادة فهو هرم مكتمل ، وتفصيل ذلك يجيء في آخر يس حيث يقول جل من قائل « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . والأمر الشرعي يمثل قمة هرم الأمر التكويني ، حين تكون قاعدته

ارادة ، والله تعالى حين قال « واذاأردنـا أن نهلك قرية ، أمرنـا مترفيهـا ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » انمـا أراد بالأمر هنـا الأمـر التكويني فمستوى قاعدة هرمه ، وهو ارادة . وحين قال « واذافعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليهـا آباءنا ، والله أمرنا بها ، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمـون ؟ » انما أراد الأمر التشريعي ومعنى « ان الله لا يأمـر بالفحشـاء » ان الله لا يرسـل رسـلا ، ويؤيدهم بالمعجزات ، ثم تكون شرائعهم داعية الى الفحشـاء « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم ، والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ، ولـكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخـذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ؟ » .

فالأمـر التشريعـي دعوة لاخراج الناس من ارادة الله الى رضاه تعـالى ، ومن أجل ذلك أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وقال فيها « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشـاء والمنـكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

ومع أن الأمـر التشريعي وحدة ، اذا ما قورن بالارادة ، فانه ، لدى النظـر الدقيق ، ذو شـكل هرمي أيضا ، قـاعدته الشريعة الجماعية ، وقمته الشريعة الفردية ، وقمـة هرم الأمـر التشريعي هذه ، تكون لقمـة هرم الأمر التكويني قـاعدة ، وهذا الأخير قمته عند الله ، حيث لا حيـث . والى هـذه القمـة

الدقيقة . المعة فى الدقة ،الاشارة بقوله تعالى « انا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر »

وهكذا يظهر بوضوح هرم الكائنات ، قمته التنزل الأول الى مرتبة الاسم ، وهو مرتبة الشريعة الفردية وقاعدته التنزل الأخير الى مرتبة العمل ، وهو مرتبة التعدد . فى الأحياء والعنصر . وأسفل السافلين فيها الدخان ، وهو بخار الماء . ومنه خلقت الأشياء ، والأحياء. قال تعالى : « ثم استوى الى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم» وأدنى من ذلك الى قاعدة هرم الخليقة قوله تعالى عن هذا الدخان « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ،وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون ؟ » وحين كانت قمة هذا الهرم عند الله فقد كانت القاعدة بعيدة عنه ، وليس البعد هنا بعد مسافة ، وانما هو بعد درجة . فقمة هرم الخليقة ، وهى مرتبة الشريعة الفردية ، فى عالم الملكوت . وقاعدة الهرم فى عالم الملك ، وعالم الملكوت مهيمن على عالم الملك ، حتى أن عالم الملك بمثابة الظلال لعالم الملكوت ، فعالم الملك هو عالم الظاهر ، وعالم الملكوت هو عالم الباطن ، أو قل عالم الملك هو العالم المحسوس ، حيث التعدد ، وعالم الملكوت هو عالم المعانى ، حيث

الوحدة ، وليس معنى هذا أن ليس فى عالم الملكوت محسوس، ولكن معناه أن محسوسه هو من اللطف بحيث لا يحس الا بالحاسة السابعة .. وسلطان العاشقين ، ابن الفارض انما عنى هذا اللطف اللطيف حين قال :

ولطف الأواني فى الحقيقة تابع

للطف المعاني والمعاني بها تنمو

ذلك بأن لكل معنى حسا ،ولكل حقيقة شريعة ، فكل معنى من المعاني ، أو حقيقة من الحقائق هى ذات شكل هرمى، له قمة وله قاعدة ، وكلما دقت القمة دقت القاعدة تبعا لذلك ، أو قل، ان شئت ، كلما دق المعنى دق الحس .

قال تبارك وتعالى «فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء،واليه ترجعون»ملكوت كل شىء هو فرديته . واليه ترجعون توكيد لهذا الفهم ، لأن الرجوع الى الله انما يكون بتقريب صفات العبد من صفات الرب .فكأن الخلائق مسيرة الى فردياتها بجمعيتها ، من الصدق الوحدة ، بفضل التوحيد .

قوله تعالى « والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين » .. لقد ذكرنا أن ظاهر القرآن عنى بآيات الآفاق ، وباطنه عنى بآيات النفس البشرية .

والكرامة عند الله للبشر ، وليس للسموات ولا للارض ، بل ان النملة عند الله أكرم من الشمس ، لأن النملة دخلت فى سلسلة من الحياة والموت ، لم تتشرف بهما الشمس ، وهى تتطلع اليها ، وترجوها بشوق النفس . ومن أجل ذلك فانا لن نتحدث عن تفسير الظاهر فى هذه الآيات ، ومن اراده فليلتمسه فى أى من كتب التفاسير ، فهو مبذول .

أقسم الله بنفسه حين أقسم بقوى النفس البشرية « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به ، والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » وهذه النفس الواحدة التى خلقنا منها انما هى نفسه تبارك وتعالى .

و « التين » النفس ، و « الزيتون » الروح ، و « طور سينين » العقل ، و « هذا البلد الامين » القلب ، . وقد أسلفنا القول بأن العقل هو نتيجة لقاح النفس والروح ، ونقول هنا أن العقل هو طليعة القلب ، ورائده الى المعرفة ، وهو له بمثابة عكاز الأعمى ، يتحسس به الطريق ، أو قل ، ان شئت ، ان العقل نوع من القلب مقام الحواس منه هو . وهو حين يقوى ، ويتحصد ، ويصبح يتلقى مداركه عن الحواس جميعها فى كل لحظة ، يصير الحاسة السادسة المرتقبة ، ذلك بأن الحياة انما بدأت بحاسة واحدة ثم تقدمت ، فى سحيق الآماد ، الى الحاسة الثانية ، فالثالثة ، فالرابعة ، فالخامسة ، وهى

منطلقة فى طريقها الى الحاسة السادسة ، ثم الحاسة السابعة ، وتلك نهاية المطاف . ولا يكون الرقى بعدها الا بتطوير هذه الحواس السبع نفسها ، لا بزيادة فى العدد عليها . فالحاسة السادسة اذن هى العقل ، حين يستحصد ، ويصبح قادرا على أن يذوق ، ويشم ، ويلمس ، ويرى ، ويسمع ، كل شيء ، وفى لحظة واحدة . فاذا بلغ العقل هذا المبلغ ، فانه يعرف قدر نفسه ، ويعلم أن مكانه خلف القلب لا أمامه ، ويسمع ، ويحاول أن يطيع ، قول العارف الجيد ، « وقدم أماما كنت أنت أمامه » . ولكن طاعة هذا الأمر هى أشق الأشياء عليه ، وهى لا تتحقق الا الفينة بعد الفينة ، وفى قمة ادراك المجود . ولا يطول المكث فيها . اذ فيها يرد الخطاب من خضر القلب ، على موسى العقل « انك لن تستطيع معى صبرا » ولكن هذه اللحظة القصيرة ، التى يطيقها موسى كل فرد مع خضره ، هى زنة الدهر الدهير ، لأنها خارج الدهر .. وهى مقام « ما زاغ البصر ، وما طغى » وعندها يشاهد السالك من ليس يحويه الدهر .. هذا مقام الشهود الذاتى بسقوط كل الوسائط ، فى تلك اللحظة يبلغ القلب مبلغ الحاسة السابعة وفيها يكون السالك وترا .

ثم لن يلبث العقل أن يدركه ضعفه ، فيجهل قدر نفسه ، ويتقدم على القلب ، وعندها يصبح العابد شفعا ، ويحجب بأنوار العقل عن شهود الذات ، ولا يشهد الا تجلياتها فى مرتبة

الاسم ، أوفى مرتبــة الصفــة ،أو فى مرتبة الفعل ، وأدناهـا مرتبة وحدة الفاعل ، والسالك فى مراتب حجب النور صاحب شرك خفى ، وهــو صــاحب شريعة فردية ، ومن ثم هــو فى ملكوته .

قوله تعالى من الآيــات السوالف « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » اشــارة الى خلقه فى عالم الملكوت ، وهــو قمة هرم الخليقة ، وذلك فى عالم الامر ، وقوله « ثم رددناه اسفل سافلين » اشارة الى خلقه فى عالم الملك ، وهو قاعدة هرم الخليقة، وذلك عالم الخلق« ألا له الخلق والامر » وعالم الخلق هو أيضا الذى اشار اليه بقوله « انا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » وقصة الخلق فى أحسن تقويم ، ثم الرد الى أسفل سافلين ، تحكيها هذه الآيات « واذ قال ربك للملائكة انى جــاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها مــن يفســد فيها . ويسفك الدمــاء ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ قال أنى اعلم مالا تعلمــون * وعلم آدم الاسمــاء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقــال ،انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين * قالوا سبــحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم * قــال يا آدم انبئهم باسمائهم ، فلما انبأهــم بأسمائهم قال ، ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات ، والأرض وأعلــم ماتبدون أنا وما كنتم تكتمون ؟ * واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجــدوا الا ابليس ، أبى واستكبر ، وكان

من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ، ومتاع الى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعا ، فأما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون * والذين كفروا ، وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون »

خلق آدم فى عالم الامر كاملا ، وعالما ، وحرا وكانت حريته منحة لم يدفع ثمنها ، فأمنحه الله ليرى كيف يصنع فيها ، فقال « يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين » وكانت الشجرة التى نهى عنها هى نفسه ، فى الباطن ، وزوجه فى الظاهر ، فلم يحسن التصرف فى حريته فيؤثر أمر الله على أمر نفسه ، وانما اختار نفسه عن ربه ، وفسق عن أمره ، واتصل بزوجه ، فصودرت حريته ، اذ عجز عن حسن التصرف فيها ، وهبط الى حيث يلقى عقوبة المخالفة ، وحيث يبدأ فى استرداد حريته بدفع ثمنها ، حتى تكون عزيزة عنده ، فلا يفرط فيها مرة أخرى ، لأن الحرية التى لا يدفع ثمنها لا تعرف قيمتها ، ولا يدافع عنها ، قال تبارك وتعالى يحذر خصمه

محمدا من حالة آدم « فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدني علما * ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ، ولم نجد له عزما »..

« ولقد عهدنا الى آدم » يعني أخذنا عليه عهدا بأن يحسن التصرف في حريته فيختار الله دائما .« فنسى ولم نجد له عزما » نسى عهدنا ، وضعف عزمه عن التزام واجب الحرية ، فتهالك امام اغراء زوجه ، ورغبة نفسه، فأساء استعمال حريته فصادرناها . و « كذلك نفعل بالمجرمين »

وحين عصى آدم ربه عن نسيان ، وعن ضعف عن مراقبة النفس ، عصاه ابليس عن قصد مبيت ، وعن استكبار ، وقد قص الله علينا من خبره تعالى « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين * فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم ، اجمعون * الا ابليس ، استكبر ، وكان من الكافرين * قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، استكبرت أم كنت من العالين؟ قال أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ! * قال فأخرج منها، فانك رجيم * وان عليك لعنتي الى يوم الدين * قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون * قال فانك من المنظرين * الى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين * الا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق اقول * لأملأن جهنم منك ، وممن تبعك منهم أجمعين » وقد

كان ابليس عابدا ، ولكنه كان متكبرا ، محجب بنفسه عن ربه، ولم تنفعه عبادته ، وكان ابليس عالما ، ولكن علمه كان علم ظاهر، ولم يصحب بعلم باطن ، ولذلك لم يكن تقيا ، ولا كان ذكيا ، فهو يقسم بعزة الله ، «قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين » ثم يستكبر عن طاعة الله .. وهو اذ فاتته التقوى لم يفكر فى الاستغفار ، عند المعصية ، وانما فكر فى الاصرار عليها ، وطلب الامهال ليجد الفرصة الى الأغراء بها ،« قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون » ولما قال تعالى « فانك من المنظرين * الى يوم الوقت المعلوم » قال هو « فبعزتك لاغوينهم اجمعين * الا عبادك منهم المخلصين » والآية الاخيرة من دلائل علمه ، اذ علم ان عباد الله المخلصين لا طاقة له بهم ، ولكن علمه كما قلنا علم ظاهر بلا تقوى فى الباطن . وأما آدم وحواء فقد قالا « ربنا ظلمنا انفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين » .

ومهما يكن من الأمر فانهم جميعا قد عصوا أمر ربهم ، وصاروا بالمعصية غلاظا ، كثافا ، غير منسجمين مع تلك البيئة اللطيفة ، فهبط بهم وزنهم الكثيف ، من سلم الترقى الى الدرك ، وهو ما سمى فى آيات « والتين » أسفل سافلين،وكان ترتيبهم فى الهبوط ابليس اولا ، متبوعا بحواء ، ثم آدم، وفى بيئتهم الجديدة احتوشتهم الشرور ، من كل جانب ، ولكنهم ما لبثوا أن أفلموا ، ونسوا ما كانوا فيه

من كمال الا قليلا ، واستجاب الله دعاء ابليس ، فأنظره الى يوم يبعثون ، فلبث فى أسفل سافلين ، من غير ترق منه ، لأنه لم يطلب الترقى ، وانما طلب الأنظار . واستجاب الله دعاء آدم وحواء ، فلم يلبثا فى أسفل سافلين الا ريثما أدركتهما المغفرة والرحمة التى طلباها فى ساعة مخالفتهما أمر ربهما «ان رحمة الله قريب من المحسنين .»

وقد يظن ظان حين يقرأ فى الآيات السوالف من سورة « والتين » قوله تعالى « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون» ان الاستثناء هنا يعنى انهم لم يردوا الى أسفل سافلين ، وهذا خطأ . والحق ان هذه الآية وسابقتها تؤديان المعنى المؤدى بقوله تعالى « وان منكم الا واردها ، كان على ربك حتما مقضيا * ثم ننجى الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثيا » فحين ، من أسفل سافلين ، آدم وحواء وبدأ ترقيهما ، بفضل المغفرة والرحمة ، وترك ابليس، حيث لم يفكر فى التغيير .

قوله « فما يكذبك بعد بالدين؟» الدين الجزاء ، وهو المعاوضة ، وهو القصاص ، وفيه اشارة الى قانون القصاص ، الذى قلنا أن الاسلام بنى عليه حقيقته ، وشريعته ، والاشارة ترمى الى ارشادنا الى أن الانسان ، انما رد من مقام أحسن تقويم ، الى درك أسفل سافلين ، بحكم قانون المعاوضة ، جزاء وفاقا .

قوله « أليس الله بأحكم الحاكمين » تزكية لقانون المعاوضة ، وتذكير لنا بالحكمة المودعة فيه .

المغفرة لادم وحواء

كيف غفر لآدم ؟ ان الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فأطاعوا ، وأمر ابليس أن يسجد لآدم فعصا ، فأما الملائكة فقد أدعوا الأمر التشريعي ، وهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويعملون ما يؤمرون » وأما ابليس فقد عصا الأمر التشريعي ، ولكنه ، بالمعصية ، أطاع الأمر التكويني ، وليس له من ذلك بد . والسجود يعني تسخير الملائكة لآدم ، وتسخير ابليس ، على تفاوت في التسخيرين . فتسخير الملائكة اعانة على الخير، وهداية الى الحق ، وتسخير ابليس دلالة على الشر ، واضلال عن الحق ، وآدم متنازع بين الخير من أعلى ، والشر من أسفل ، وهو في الحالتين سائر الى الله . « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » فالنعم الظاهرة هي المواتي ، والنعم الباطنة هي المصائب .. وكلها رحمة ، وان كانت النفوس تنفر من المصائب، وترتاح الى المواتي ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم ، وانتم لا تعلمون » ، وكل المعصية في نقص العلم .

فاذا تصورت أول مخلوق بشري قائم على الحد الفاصل بين الحيوانية والانسانية ،وتصورته رأس سهم التطور ، فقد تصورت آدم الخليفة في الأرض، وهو في مرحلة من مراحل تطوره من بدايات سحيقة ، ولكنها مرحلة تحولية ، دخلها

بمره فريده ، نتجت عن استجماع خصائل شتى ، احتزتها أثناء تطوره الطويل ، المرير ، من تلك البدايات السحيقه ، وتلك القفزة هي المعبر عنها بقوله تعالى «ثم أنشأناه خلقا آخر » من الآيات الكريمات « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ❊ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ❊ ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغه، فخلقنا المضغه عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين»

وهي بعينها المعبر عنها بقوله تعالى « ونفخت فيه من روحي» من الآيتين الكريمتين « واذ قال ربك للملائكه اني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ❊ فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين» . « فاذا سويته » هذه ، تشير ، بإجمال معجز ، الى سلسلة التطور التي بدأت من بخار الماء ، حيث كانت السموات والأرض سحابه واحدة ، والى أن استعد المكان لنفخ الروح الالهي فيه . ولقد قلنا أن الروح الالهي هو « ارادة الحرية » التي توجت « ارادة الحياه » فارتفع بها الانسان فجأة فوق الحيوانات العليا . ولم توجد ارادة الحريه فجأة بعد عدم ، وانما برزت بعد كمون طويل فهي بمثابة الزبدة التي محصها العراك من لبن الحياة ، ولقد تحدثنا عنه آنفا وقلنا انها دخلت في عراك مع ارادة الحياة ، وان العقل نتيجة هذا اللقاء .

وارادة الحياة بنت من الأرض ، وعوامل السماء فيها

موجودة ، ولكنها أضعف من عوامل الأرض . وارادة الحرية نشأت من الأرض ، ولكن عوامل السماء فيها قوية ، فبها القامة البشرية قامت على الرجلين ،وخصصتهما للمشى ، وفرغت بذلك اليدين لمزاولة أعمال ذات صلة بالعقل أكبر ، وكذلك استطاعت أن تدير رأسها ، بسهولة ، ويسر ، على ما حولها ، وما فوقها ، فترى الشمس والقمر والنجوم ، وأن تمشى سويه ، تهتدى فى مسالك الأرض ، وفى طرائق السماء « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ، أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » .

وآدم ، فى الوجود ، مصارع بين الملائكة من أعلى ، والأبالسة من أسفل ، فهو بروح الوجود كله ، وهو فى ذلك عقل الوجود أيضا ، والله تبارك وتعالى يعنيه حين قال ، جل من قائل « مرج البحرين يلتقيان ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان » والبحران هنا هما : بحر الأرواح العلوية ، التى أشرقت بالطاعة ، وبحر الأرواح السفلية ، التى اكدرت بالمعصية .

وعقل آدم ، فى آدم ، متنازع بين « ارادة الحياة » وهى النفس ، من أسفل ، و « ارادة الحرية » ، وهى الروح ، من أعلى ، وهو أيضا برزخ ، والله تعالى يعنيه ، فى الآيتين الكريمتين السالفتين ، وهو معناهما الباطن ، وآدم معناهما الظاهر .

والنفس قانونها ابتغاء اللذة بكل سبيل ، واجتناب الألم بكل سبيل أيضا . ولذلك فهى تطيع الأمر التكوينى ، وتثقل عليها

طاعة الأمر التشريعي ، لأنه يضع لها الحدود ، وهي في ذلك أشبهت ابليس .

والروح قانونها الحرام والحلال ، وهي تبتغي من النفس أن تستعصم عن اللذة العاجلة اذا كانت حراما ، وذلك ابتغاء اللذة الآجلة الحلال ، وفرارا من الألم المترتب على تعاطي اللذة الحرام ، سواء كان هذا الألم معجلا أو مؤجلا . ولذلك فهي ترتفع من طاعة الأمر التكويني ، الى طاعة الأمر التشريعي . وهي في ذلك أشبهت الملائكة .

وآدم ، في هذه المرحلة البدائية من تطوره ، قيل له كل من هذا ، ولا تأكل من هذا .. أي قيل له هذا حرام وهذا حلال ، فإن هو قوى على مراغمة النفس ، وعصا أمرها بالسوء ، واجتنب الحرام ، فقد أحسن التصرف في حريته ، واستحق أن يزاد له فيها ، والله تعالى يقول « هل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ » وجزاء الأحسان مضاعف ، وذلك محض فضل . اسمه يقول ، « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها ، وهم لايظلمون »

وقد تضاعف اضعافا كثيرة ، وقد تضاعف بغير حساب .. اسمه تبارك وتعالى يقول « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » فهنا الحبة انبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، فذلك سبعمائة ضعف ، ثم

قال ، فوق ذلك ، و« الله يضاعف لمن يشاء » كان يكون سبعة آلاف ضعف ، أو سبعين ألف ضعف ، فاذا قال « والله واسع عليم » فقد خرج عن العدد ، الى السعة المطلقة .

وأن هو لم يقو على مراغمتها ، وضعف أمام اغرائها ، واسترسل فى تحصيل شهوتها الحرام ، فقد اساء التصرف فى حريته ، وعرضها ، من ثم ، للمصادرة . فأن كان سوء تصرفه هذا فيه اعتداء على حق من حقوق الجماعة ، صودرت حريته وفق قانون المعاوضة فى الشريعة ، وآيته من كتاب الله قوله تبارك وتعالى : « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »

وان كان سوء تصرفه انما يقع وباله على نفسه وحدها ، دون غيرها من الأنفس ، صودرت حريته وفق قانون المعاوضة فى الحقيقة ، وآيته من كتاب الله قوله تبارك وتعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . هذا ولا يظنن أحد ان قانون المعاوضة فى الشريعة ، دائما ، كان فى هذا الأحكام الذى وردت به التوراة ، ثم أقره الأنجيل من بعدها ، ثم جاء القرآن بتأييده واقراره . ذلك بأنه قانون يتطور مع تطور المجتمع البشرى ، ويتأثر بمستوى دقة العقل البشرى ومقدرته على مضاهأة قانون الحقيقة الذى هو أصله ، والذى كان ، ولا يزال ، فى منتهى الأحكام ، وهو لم يغادر صغيرة

ولا كبيرة الا أحصاها .

والدقة التى هى حظ قانون المعاوضة فى الحقيقة ، والتى فاتت كثيرا من صورها على قانون المعاوضة فى الشريعة ، تجد ضبطها فى أن القانونين يعملان معا فى مصادرة حرية من عجز عن الوفاء بحق الحرية ، من غير أن تكون هناك عقوبتان على خطيئة واحدة . وفى مستوى واحد من مستويات العقاب . وأقرب قوانين المعاوضة فى الشريعة دقة من قوانين المعاوضة فى الحقيقة الحدود ، وهى أربعة .. الزنا والقذف والسرقة وقطع الطريق .. وترجع الى أصلين هما حفظ العرض ، وحفظ المال ، وهما أول قانونين نشأ فى المجتمع البشرى البدائى ، واليهما يرجع الفضل فى جعل المجتمع ممكنا . ويلى هذه الحدود حد السكر ، ثم تجيء قوانين القصاص الأخرى فى النفس بالنفس ، والعين بالعين .

ومعاوضة فعل الشر انما تكون بوضع الألم فى مقابلة اللذة من النفس ، والمراد من ذلك وزن قواها حتى تعتدل ، ولا تحيف ، فتتهالك على اللذة بغير كتاب منير .

كيف غفر لادم ؟

الجواب غفر له باعطائه حق الخطأ . وهذا يعنى أن حريته لم تصادر مصادرة أبدية فيقام عليه وصى الى نهاية ذلك الأبد ، كما فعل بأبليس ، وانما أذن له فى استردادها ، وبدأ بممارسة ما يطيق منها ، فهو يعمل فى ذلك بين الخطأ والصواب ، فكلما

أحسن التصرف فى الحرية التى لديه أوتى مزيدا منها ، وان بدرت منه اساءة فى التصرف تحمل نتيجة سوء تصرفه بعقوبة معاوضة ، ومقابلة للخطيئة ، يراد بها الى شحذ قوى نفسه ، حتى تتأهل ، أكثر من ذى قبل ، لتحمل واجب الحرية فى ذلك المستوى الذى بدر منها العجز عنه .. ثم ان هذه العقوبة يتجلى فيها اللطف الالهى كما يليق به ، فهو يجازى بالحسنة عشر أمثالها ، وقد يضاعفها حتى تخرج عن الحصر ، وهو لايجازى بالسيئة الا مثلها ، وقد يعفو عنها ، وقد يبدلها حسنة ، وقد يضاعفها ، بعد ذلك ، أضعافا لا حد لها ، فهو تبارك وتعالى يقول « والذين لا يدعون مع الله الها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق آثاما ، يضاعف له العذاب ، يوم القيامة ، ويخلد فيه مهانا * الا من تاب ، وآمن ، وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما » ولقد ألهم آدم كلمات فتلقها ، فكانت سببا الى التوبة ، فالمغفرة ، « فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم » ولقد كانت تلك الكلمات هى « ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا ، وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين »

هذه هى المغفرة لآدم بعد أن أصبح بشرا عاقلا ، ولقد أنفق آدم دهرا دهيرا قبل أن يبلغ هذه المرتبة الرفيعة .. قال تعالى فى ذلك ، « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن

شيئا مذكورا * انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا * انا هديناه السبيل ، أما شاكرا وأما كفورا » يعنى قد أتى على آدم عهد سحيق ، لم يكن فيه مكلفا ، ولا مسئولا ، لأنه لم يبلغ مبلغ العقل ، ولقد تحدثنا عن هذا آنفا ، وقلنا ان الله سير الحياة ، من لدن ظهورها بين الماء والطين ، والى ان بلغت مبلغ العقل ، تسييرا شبه مباشر ، وقانونها يومئذ هو قانون المعاوضة فى الحقيقة ، وآيته من كتاب الله ، كما سبق بذلك التقرير ، هما الآيتان الكريمتان « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وهو قانون يعمل دائما على تنمية الخير ، ومحو الشر ، وذلك بسوق الحياة الى كنف الله الرحيم .

هذا التسيير فى مراقى القرب هو المغفرة لآدم ، من لدن النطفة الأمشاج ، والى ان اصبح بشرا مكلفا ، فماذا كان آدم قبل هذا ؟ وكيف غفر له ؟ اسمع « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » فقبل أن يصبح آدم نطفة مختلطة بالطين — نطفة أمشاجا — قد كان ذرة من بخار الماء ، الذى هو أصل الحياة ، كما يخبرنا تبارك وتعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون ؟ » وهذه الذرة هى أصل سلالة الطين . وانما غفر له فى هذه المرحلة بهذا التسيير

المباشر ، بالقهر الارادى ، الذى حفز الحياة الى الله وازعجها الى قربه ، فارتقت المراقي ، وبلغت المبالغ . وقانون هـذه الارادة الإلهية . هو قانون المعاوضة في الحقيقة ايضا .

وهـذه المغفـرة لادم في مستوياتها المختلفة هي بعينهـا التسيير ، فالناس مسيرون مـن مرتبة العناصر الى مرتبة الحيـاة ومن مرتبة الحيـاة البدائية الى مرتبة الحياة المتقدمة الراقيـة المعقدة ، ومن هذه الى مرتبـة الحرية الجماعية بدخول العقـل في المسرح ، ومن مرتبة الحـرية الجماعية ، الى مرتبـة الحـرية الفردية المطلقة ، والتسيير يطرد في هذه الى غير نهاية ، لأنه سير الى الله في اطلاقه .

التسيير خير مطلق

بدخول العقل في المسرح نشأ قانون المعاوضة في الشريعة،وهو قانون صحيح ، اذا مـا قيس الى قانون المعاوضـة في الحقيقـة ، ولكنه يدق ، ويضبط ، كلمـا قوى العقل واستحصد . وهو القانـون الحـادث ، ويحكي الارادة البشرية ، المحدثة . وهو انما يستهدف اتمام الانطبـاق على القانون القديم ، الـذى يحكي الارادة الإلهية القديمة .. وهيهات !!

والانسان مسير من البعد الى القرب ، ومـن الجهـل الى المعرفة ،ومن التعدد الى الجمعية، ومـن الشر الى الخـير ، ومن

المحدود الى المطلق، ومن القيد الى الحرية .

والتسيير ، من بدايته ، هو رحمة في صورة عدل ، وهو أكبر من العدل ـ « فالرحمة فوق العدل » ـ وقد أسلفنا القول في ذلك .

والتسيير حرية ، لأنه يقوم على ممارسة العمل بحرية « مدركة » في مستوى معين ، فاذا أحسن المتصرف التصرف زيد له في حريته ، فارتفع مستواه بالتجربة والمرانة ، وان لم يحسن التصرف تحمل مسئوليته قانون حكيم يستهدف زيادة مقدرته على حسن التصرف ، وهكذا ، فكأن الانسان مسير من التسيير الى التخيير ، لأن الانسان مخير فيما يحسن التصرف فيه ، مسير فيما لا يحسن التصرف فيه ، من مستويات الفكر ، والقول ، والعمل .

هناك حديث قدسي جرى من الله تعالى لنبيه داوود : « يا داؤود ! انك تريد ، وأريد ، وانما يكون ما أريد ، فان سلمت لما أريد كفيتك ما تريد ، وان لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون الا ما أريد » ولقد قرر الأمر من الوهلة الأولى حين قال ، في صدر الحديث ، « وانما يكون ما أريد ، » فدل بذلك على أن ارادة الله هي النافذة .

وحين قال « فان سلمت لما أريد كفيتك ما تريد » دل على أن ارادة الانسان تكون نافذة المفعول ان هو أراد الله . فان

قلت فهل هو يملك أن يريد الله ؟ فلنا هو لا يملك من تلك الارادة الا ما ملكه الله تعالى اياه ، فانه سبحانه وتعالى يقول « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » وهو يشاء لنا فى كل لحظة أن نحيط بشيء من علمه ، والى ذلك الاشارة بقوله « كل يوم هو فى شأن » وشأنه هو ابداء ذاته لخلقه ليعرفوه ، وليس يومه أربعا وعشرين ساعة ، وانما يومه وحدة زمنية التجلى ، وقد تنقسم فيه الثانية الى جزء من بليون جزء، حتى ليكاد الزمن أن يخرج عن الزمن ، كل ذلك وفق ما أودع الله فى المكان من قابلية التلقى ، ولما كان القيد على قابلية التلقى لا يحصى الا لحكمة المطلق، فهو قيد فى حرية،وضيق فى سعة،ومن أجل هذه الرحمة المطلقة فاننا أصبحنا نشعر بأننا نملك ارادة حرة ،وهذا الشعور أوجب علينا أن نحسن التصرف فى حرية ارادتنا هذه، وحسن التصرف فى حرية الارادة انما يكون بأن نريد الله ، ولا نريد سواه ، فان نحن قمنا بذلك عن يقين مكتمل ..فكرا ، وقولا ، وعملا ، فانه يمدنا بمزيد من حرية الارادة ،وان نحن أسأنا التصرف فى حرية الارادة ، فأردنا سواه ، صادر حريتنا بما يعلمنا كيف نحسن التصرف فى مستأنف أمرنا ،وحسن تصرفنا منه منة ، وسوء تصرفنا منه حكمة ، وهدف الحكمة أن يستعد المكان لتلقى المنة ، وكل أولئك انما يجرى فى لطف تأت ، لا يزعج منه لنا خاطر ، ولا يمحى معه لنا وجود .

ونحن لا نختار أنفسنا عن الله الا لجهلنا ، وليس الجهل

ضرية لازب علينا ، وانما نحن نخرج عنه الى العلم كل لحظة .
فأن قلت فلماذا لم نخلق علماء ،فنكفى بذلك شر الجهل ، وسوء التصرف فى الحرية ، وما يترتب على سوء التصرف من عقوبة ؟

قلنا أن العقوبة هى ثمن الحرية ، لأن الحرية مسئولية ، والمسئولية التزام شخصى فى تحمل نتيجة العمل ، بين الخطأ والصواب . ولقد خلق الله خلقا علماء لايخطئون ، ولكنهم ليسوا أحرارا ، ولقد نتج عن عدم حريتهم نقص كمالهم ... أولئك هم الملائكة ، فأن الله فضل عليهم البشر ، وذلك لمكان خطئهم وصوابهم ، أو قل لمكان طاقتهم على التعلم بعد جهل ، والى ذلك الاشارة بحديث المعصوم « ان لم تخطئوا وتستغفروا فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم » فكأن الخطائين المستغفرين هم موضع نظر الله من الوجود ، لأنهم بذلك سيصيرون الى الحرية ، والحرية المطلقة ، وهى حظ الله العظيم.. وكل مقيد مصيره الى الحرية ، والحرية المطلقة فى ذلك . وكل جهل مصيره الى العلم ، والعلم المطلق فى ذلك أيضا . والله تبارك وتعالى يقول « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه» ويقول «أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وانكم الينا لا ترجعون ؟ » وملاقاة الله ،والرجوع اليه ، لا يكون بقطع المسافات ، وانما يكون بتقريب الصفات ، من الصفات . ومن أجل ذلك قررنا ان التسيير خير مطلق ، وهو فى حقيقة أمره خير، فى الحال ، وخير ، فى المآل ..

وسيجيء وقت ينتهي فيه الجهل بفضل الله في التسيير ، والى ذلك أشار المعصوم حين قال « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، ولعلمتم العلم الذي لا جهل بعده ، وما علم ذلك أحد !! قالوا ولا أنت ؟ قال ولا أنا !! » قالوا ما كنا نظن الأنبياء تقصر عن شيء !! قال « ان الله أجل وأعظم من أن ينال ما عنده أحد !! » وكلما قل الجهل ، وزاد العلم ، قل الشر ، ورفعت العقوبة، عن المعاقبين ، في تلك المنطقة التي وقعت تحت علمهم .

فالعقاب ليس أصلا في الدين ، وانما هو لازمة مرحلية ، تصحب النشأة القاصرة ،وتحفزها في مراقي التقدم ، حتى تتعلم ما يغنيها عن الحاجة الى العقاب ، فيوضع عنها أصره ، وتبرز نفس الى مقام عزها .

وما من نفس الا خارجة من العذاب في النار ، وداخلة الجنة ، حين تستوفي كتابها في النار ، وقد يطول هذا الكتاب ، وقد يقصر، حسب حاجة كل نفس الى التجربة ، ولكن ، لكل قدر أجل ، وكل أجل الى نفاد .

والخطأ ، كل الخطأ ، ظن من ظن أن العقاب في النار لا ينتهي اطلاقا ، فجعل بذلك الشر أصلا من أصول الوجود ، وما هو بذاك . وحين يصبح العقاب سرمديا يصبح انتقام نفس

جامدة ، لا مكان فيها للحكمة ، وعن ذلك تعالى الله علوا كبيرا .

القضاء والقدر

هناك ما يسمى سر القدر، وهو الطرف الرفيع من القضاء ، ولقد وردت الاشارة اليه فى قوله تعالى « انا كل شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » فالقضاء هو هذا الأمر الواحد الذى خرج عن الزمان والمكان ، كما تفيد عبارة «كلمح بالبصر » والقدر هو تفصيل القضاء ، وابرازه فى حيز الزمان والمكان ، على مكث ، وتلبث ، وتطور .

والقضاء والقدر وردت الاشارة اليهما أيضا فى آية أخرى ، وهى قوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ، ويثبت ، وعنده أم الكتاب » فقوله تعالى « يمحو الله ما يشاء ، ويثبت » اشارة الى القدر ، وهى فى ذلك اشارة الى التطور ، تتعاقب صور الكائنات ، فقد أسلفنا الاشارة الى أن الحياة تتقلب فى الصور ، ابتغاء أن تكون ثابتة فى الصور كما هى ثابتة فى الجوهر ، وهيهات !! .. وقوله « وعنده أم الكتاب » يعنى القضاء ، يعنى سر القدر .

واليهما أيضا الاشارة بقوله تعالى « وان من شيء الا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم» فقوله « وما ننزله الا بقدر معلوم » تعنى القدر ، وقوله «وان من شيء الا عندنا خزائنه » تعنى

القضاء ، تعنى سر القدر أيضا .

فالقدر منطقة ثنائية ، حيث الخير والشر ، والعلم والجهل ، ولكن القضاء منطقة وحدة ، حيث يختفى الشر ، ولا يبقى الا الخير المطلق ، عند الله ، حيث لا ضد ، وهذا ما يسمى عند أصحابنا بسر القدر ، وهو أمر لم يكن عندهم مما يصح ابوح به ، وذلك مراعاة لحكم الوقت ، وتأدبا بأدبه .

وهناك سابقتان لكل مخلوق : سابقة فى القضاء ، وسابقة فى القدر .. فأما السابقة فى القضاء فهى خير مطلق لكل الخلائق ، وأما السابقة فى القدر فهى أما خير ، وأما شر ، وأمرها مغطى على الناس ، وقد تدل ، على هذه السابقة ، اللاحقة ، وهى ما يكون عليه الانسان فى حياته اليومية من صلاح أو طلاح ، وأمر اللاحقة غير مغطى على أصحاب البصائر ، الذين يعرفون عيوب العمل بالشريعة ، وارسال الله الرسل ، لكشف اللاحقة ، بتفصيل الشريعة ، وتغطيته تعالى السابقة فى سر لوحه المحفوظ ، ألزم عباده الحجة ، وأوجب عليهم العمل بأوامر الشريعة ، ونواهيها ، « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ولقد قال ، جل من قائل ، فى ذلك « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، مالهم بذلك من علم ، ان هم الا يخرصون » .. ما لهم بمشيئة الرحمن من علم ، لأنها مغطية عنهم ، وانما لهم علم بشريعة الرحمن ، وقد أمرتهم ألا يعبدوا الا اياه ، وقوله « ان هم الا

يخرصون » تعنى ألا يكذبون ، وذلك لأنهم لا يردون الأمور كلها لله ، فى أمور معاشهم ، وفى كسب أرزاقهم ، وما ردوها اليه فى أمر عبادتهم الا لقلة حظهم بالآخرة، اذا ما قيست الى الدنيا .

وحين تطلع النفس على سر القدر ، وتستيقن أن الله خير محض ، تسكن اليه ، وترضى به ، وتستسلم وتنقاد ، فتتحرر عندئذ من الخوف ، وتحقق السلام مع نفسها ، ومع الأحياء والأشياء ، وتنقى خاطرها من الشر ، وتعصم لسانها من الهجر ، وتقبض يدها عن الفتك . ثم هى لا تلبث أن تحرر وحدة ذاتها ، فتصير خيرا محضا ، تنشر حلاوة الشمائل فى غير تكلف ، كما يتضوع الشذا من الزهر العطار .

هنا يسجد القلب ، والى الأبد ، ويوصيد أول منازل العبودية . فيومئذ لا يكون العبد مسيرا ، وانما هو مخير .

ذلك بأن التسيير قد بلغ به منازل التشريف ، فأسلمه الى حرية الاختيار ، فهو قد أطاع الله حتى أطاعه الله ، معاوضة لفعله .. فيكون حيا حياة الله ، وعالما علم الله ، ومريدا ارادة الله ، وقادرا قدرة الله ، ويكون الله .

وليس لله تعالى صورة فيكونها ، ولا نهاية فيبلغها ، وانما يصبح حظه من ذلك أن يكون مستمر التكوين ، وذلك بتجديد حياة شعوره وحياة فكره ، فى كل لحظة ، تخلقا بقوله تعالى عن

نفسه ، « كل يوم هو فى شأن » والى ذلك تهدف العبادة ، وقـد أوجزها المعصوم فى وصيته حين قال « تخلقوا بأخلاق الله ، ان ربى على صراط مستقيم » وقـد قال تعالى « كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتـم تدرسـون » .

وفى حق هؤلاء قال تعالى « لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين » فقوله تعـالى « لهم ما يشاءون » يعنى هـم مخيرون وقوله (عند ربهم) يعنى مقام العبـودية ، لأنه لا يكون عنـد الرب الا العبد ، وقوله « ذلك جزاء المحسنين » يعنى بالمحسنين من أحسنوا التصرف فى الحرية الفردية المطلقة ، وذلك باستعمالها فى تحقيق العبـودية لله ، فانه تعالى قد قال « ومـا خلقـت الجـن والانـس الا ليعبـدون » .

هنا منطقـة فرديـات ، الشرائع فيهـا شرائع فـردية ، والداعية فيهـا ، الى الله ، الله نفسه .. يقوم فيهـا العبد فى مواجهة الرب ، وقد سقطت من بينهما الوسائط ، ورفعت الحجب - حجب الظلمـات وحجب الأنوار - العبادة فيها عبودية ، والعمل فيها ملاحظة السابقة ، وضبط اللاحقـة عليهـا ، حتى يستقيم الوزن بالقسط ، لدمحاولة العبد هنا أن يكون لربه كما هو له ، وهذا معنى أمر الرب سبحانه حين قال « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » فاذا كان حضور العبد مع الرب كحضور الرب مع العبد ، تماما ، فقـد أقيم الوزن بالقسط .. وهيهات !!

ولا بأس هنا من استطراد بسيط الى القيمة العملية من العبادة ، ذلك بأن قيام العبد فى مواجهة الرب ، وقد سقطت من بينهما الوسائط ، تمنى اللقاء بين الحادث والقديم ، وقد رفعت من بينهما الحجب . والحادث هنا العقل والقديم القلب ، وهو ما يعبر عنه أيضا بالعقل الباطن . وهذه الحجب هى خبث الرغبات المكبوتة على سطح العقل الباطن ، بفعل الخوف الموروث ، فى سحيق الآماد . من لدن النشأة البشرية الأولى ، وهى « الرين » الذى وردت الاشارة اليه فى قوله تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

ولا يمكن أن ينعم الفرد بالحرية الفردية المطلقة وهو منقسم على نفسه ، وبعضه حرب على بعض . بل لا بد له من اعادة الوحدة الى نفسه ، حتى يكون فى سلام مع نفسه ، قبل أن يحاول أن يكون فى سلام مع الآخرين ، فان فاقد الشيء لا يعطيه . وهو انما يكون فى سلام مع نفسه حين لا يكون العقل الواعى فى تضاد ، وتعارض مع العقل الباطن ، ويومئذ تتحقق سلامة القلب ، وصفاء الفكر . وبعبارة أخرى ، تتحقق حياة الفكر ، وحياة الشعور ، وتلك هى الحياة العليا . . وتوحيد القوى المودعة فى البنية انما يتم بأن يفكر الانسان كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، وهذا هو مطلب القرآن الينا جميعا ، حين قال ، عز من قائل ، « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا

تفعلون ؟ ＊ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ».

وأما بعض التعارض القائم ، بين العقل الواعي والعقل الباطن عن طريق فهم التعارض القائم بين الفرد والجماعة ، وبين الفرد والكون وقد بينا فضل الاسلام في ذلك ، وهكذا يتضح ان ضرورة فهم علاقة الفرد بالجماعة ، والفرد بالكون ، فهما دقيقا انما تجيء من الحاجة العملية الى المنهاج الذى به يتم تحقيق الحرية الفردية المطلقة ، ولا يتم بمنهاج سواه .

بقى شيء ... وهو ان هنالك خطأ يتورط فيه كثير من المفكرين ، وذلك حين يظنون أن القول بالتسيير فيه سلبية والحق غير ذلك ... ذلك لأن معطيه ما سبق به القدر ، وكشف ما جاءت به الشريعة ، قد أوجبا على الانسان العمل بأوامر الشريعة ، ونواهيها ، جهد الاتقان ، والاحسان ، ثم الرضا بعد ذلك بما عسى أن يكون مكتوبا عند الله ومقدرا ، وذلك توكلا عليه ، وثقة به — ولقد قال المعصوم « ان الله كتب الاحسان على كل شيء ، فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » بل أني لا أعلم ايجابية تبلغ ايجابية من يعمل الواجب المباشر جهد الاتقان « لأن الله قد كتب الاحسان على كل شيء » ثم يرضى بالنتيجة مهما كانت من غير أن تذهب نفسه حسرات عند الخيبة ، أو يستخفه الفرح عند النجاح ، والله تبارك وتعالى يربيا ، في ذلك ويؤدبنا ، بقوله

جل من قائل « ما أصـاب من مصيبــة ، فى الأرض ، ولا فى أنفسكم ، الا فى كتاب من قبل أن نبرأهـا ، ان ذلك على الله يسير ＊ لكيلا تأسوا على مـا فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور . »

الخلاصـة

وخلاصة الأمـر فى علاقة الفرد بالكون هى أن موضعه منه ليس موضع اللدد والخصومـة ، ولا موضع المناجزة والمصاولة التى لا تهدأ حتى تبدأ من جديد ؛ فى صعيـد جديد .

ان الانسان هو ثمرة الكون ، وصفوته ، وهو فيه ملك فى مملكتـه ، مكانه منهـا مكان السياسـة الحكيمـة ، والادارة القديرة والعدل الموزون . وقد تأذن رب الكـون أن يجعـل الانسان خليفته عليه ، فهو يعده لهذه الخلافة بالتربية والتعليـم والارشاد الحكيم . وقد خـل الجهل للانسـان انه مقصـود بالعداوة ، فى غير رحمة ولا هوادة ، فأصبح يحارب فى غير محترب ، ويعـادى فى غـير مـوجـب للعداوة ، وهو لن يبلغ مبلـغ الخلافة الا اذا شب عن العداوات ، وعلم أنه أكبر من ان يعادى ، ولم يصبـح فى قلبـه مـكان الا للمحبة .. فان الله يحـب جميع الخـلائق .. غازهـا ، وسائلها ، وحجرها ، ومـدرها ، ونباتها ، وحيوانها ، وانسـانها ، وملكها ، وابليسها .. فانه تبارك وتعالى انما خلق الخلائق بالارادة .. والارادة « رغـبة » وهى المحبة .. ولن يكون الانسان خليفة الله على خليقته الا اذا

اتسع قلبه للحب المطلـق لكل صورها وألوانها ، وكان تصرفه فيهـا تصرف الحـكيم ، الذى يصلح ولا يفسـد ٠ ولا يعوق الحب فى القلوب مثل الخوف ٠ فالخوف هو الأب الشرعى لكل الآفات التى ابتلى بها السلوك البشرى فى جميع عصور التـاريخ ٠ ٠ ولا يصلح الانسـان للخلافـة على الأرض ، ولا للتصرف السـليم فى مملكته وهو خائف ٠٠ وليس هناك أسلوب ، ولا نهج لتربية يحرره من الخوف غير الاسلام ٠٠ فان بالاسلام يتم سلام الانسـان مع نفسه ، ومع ربه ، ومع جميع الأحياء ، والأشياء ٠٠ قال تعالى (يأيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين) السلم يعنى الاسلام ، ويعـنى السلام ٠٠ وهما بمعنى واحـد (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فيغرى بيـنكم العداوة ، والبغضاء ٠٠ والاشارة الى العداوة وردت فى قوله تعالى (انـه لكم عدو مبـين) ٠٠

الباب الرابع

الإسلام

لقد تحدثنا عن الفرد والجماعة في التفكير الفلسفي ، وعن الفرد والكون في التفكير الفلسفي أيضا ، وأعقبنا ذلك بالحديث عن الفرد والجماعة في الاسلام، والفرد والكون في الاسلام ، فنجح في الاسلام من الحلول ما أعيانا ابتغاؤه في الفلسفة ، وقد أظفرنا الله من ذلك بما نريد . فوجب أن نعرف الأرض التى نقف عليها !!

فما هو الاسلام ؟

أسلم : انقاد واستسلم . والاسلام ، في الحقيقة ، الانقياد والاستسلام . ونعني بالحقيقة ما فطرت عليه الأشياء . والله تبارك وتعالى يعني هذا حين قال. « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والأرض ،طوعا وكرها ، واليه يرجعون؟ » والدين يعني‌ها الشأن ، والسيرة ، والسنة . ودين الله يعني سنة الله في خلقه ، وهي ما فطرت عليه الأشياء . ولقد فطرت الأشياء منقادة لله ، « وله أسلم من في السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون»والاسلام ، بهذا المعنى ، هو دين الخلائق جميعها ، في البداية ، وفي النهاية، وفيما بين البداية والنهاية . ولا يستثني من ذلك الانسان . بيد أن الرحمة الالهية لم ترض للخلائق

الانقيـاد بغير ارادة ، فمضت ، بدقائق لطفها ، لطليعتها ، وهـو الانسان ، أن يتوهم انه يختلف عن بقية المخلوقات ، وهذا الوهم هو مصدر شقائه فى الحال ، وهو مصدر سعادته فى المآل ، وانما دخل عليه هذا الوهم بما أدخل الله عليه مـن ارادة الحـرية ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى : « انا عرضنا الأمـانة على السموات ، والأرض ، والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا » و « كان ظلوما جهولا » مـدح فى قالب ذم • فانه من أجل حمل هذه الأمانة جاءت الكرامة لبنى الانسان ، والله تبـارك وتعالى يقول « ولقد كرمنـا بنى آدم ، وحملنـاهـم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ••

وعن توهم الانسان الشذوذ عن بقية الخلائق يحدثنا ، تبارك وتعالى ، فيقول « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمـر والنجـوم والجبال والشجـر والدواب ، وكثير من النـاس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، ان الله يفعل ما يشاء ؟ » ولكلمة (يسجد) معان كثيرة ، منهـا مطاوعة القهر الارادى • وهذه المطاوعة جارية من الانسـان ، كما هى جـارية من العنـاصر الصماء • ومنها سجود العبادة ، وهو ما عناه حين قال « وكثير من الناس » • فان هؤلاء سجدوا سجود الأجسـاد فى محـاريبه

العبادة ، الأمر الذى لم يقع من بعض الناس ، والى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى « وكثير حق عليه العذاب » . فاستحقاق العذاب ليس لانهم لم يسجدوا سجود القهر الارادى ، فانهم قد سجدوا هذا ، ولكنه لم يقبل منهم ، وانما أريد منهم سجود العبادة ، فلم يفعلوه ، فحق عليهم العذاب . وسما سجود العبودية ، وهو ما لم يحصل من أحد ، على تمامه ، ولن يحصل . ذلك بأن العبودية ، كالربوبية ، لا تتناهى ، ولكن طلائع البشرية ، من أنبياء الحنيفة ، حققوا منه حظوظا متفاوتة . وكون سجود العبودية لم يتم لأحد ، ولن يتم ، انما يلتمس تقريره فى صدر الآية التالية ، حيث يقول تعالى « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » فانها تصح فى حق كل عابد ، وهى اشارة الى انقسام الشخصية البشرية ، الى ظاهر ، وباطن ، وهى لن تملك مقسمة ، لأن الثنائية حظها ، ولا تتم العبودية الا لوتر ، وهيهات !! وسجود العبادة وسيلة الى سجود العبودية ، اذ به يرفع عن الانسان الوهم ، فيخرج من سجنه الى سراحه ، ومن جهله الى علمه ، ومن شقائه الى سعادته . وذلك حين يسجد سجود المطاوعة للقهر الارادى ، ولكن عن وعى ، وفهم ، وادراك به يختلف عن العناصر الصماء ، والى هذا السجود الرفيع الاشارة اللطيفة فى قوله تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا ؟ » والاشارة اللطيفة هنا هى عبارة « وهو محسن » فأنها سر هذه الآية ، وهى

أيضا سر الآية الأخرى التي تقول « ومن يسلم وجهه الى الله ، وهو محسن ، فقد استمسك بالعروه الوثقى ، والى الله عاقبة الأمور » وانما كانت عبارة « وهو محسن » سر الآيتين لأن جميع العناصر الصماء مسلمه وجهها لله ولكنها غير محسنة ـ غير واعية ولامدركة ـ فلا عبرة بأسلامها ، لأنها مسلمة فى منطقة الارادة ،ولم تبلغ أن تكون مسلمة فى منطقة الرضا ، فذلك حظ الشر وحدهم ، وهو ما من أجله أرسل الله الرسل ، وقد سبقت الى ذلك الاشارة .

والاسلام بهذا المعنى دين البشرية ، وغرضه مجاراة الوهم البشرى ، الذى أوحت به ارادة الحرية ، حتى يتم الخروج عنه ، على مكث ، وبحكمة متثبتة ،تكون ثمرتها الاسلام الواعى . والاسلام الذى هو دين البشرية ظهر بظهور العقل ، وظل يواكب نمو العقل فى تطوره الطويل ،من بداية ساذجة ضعيفة الى نهاية حكيمة مستحصدة .

والاسلام الذى هو دين البشرية ، هو نفسه الاسلام الذى هو دين الله ، فى الآية التى سلف ذكرها ، وهى قوله تعالى ، « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون » وعن الاسلام الذى هو دين البشرية وردت الآية « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » وقوله « وهو فى

الآخرة من الخاسرين » يعني أن محاولاته كلها تفشل ، فيرد في آخرتها الى الاستسلام بعد أن تعييه الحيلة . وفي نفس المعنى وردت الآية « ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم ، بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » فقوله « عند » ليس للزمان ، ولا للمكان ، لأن الله لا يحويه الزمان ولا المكان ، وانما هي لتناهي الكمال . فالاسلام الذي هو دين البشرية ، في قمته ، يسير مصاقبا للاسلام الذي هو دين العناصر ، ويطالب بالانقياد كانقيادها ، مع الوعي وتمام الادراك لهذا الانقياد ، وهيهات !!

قوله « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم » يعني ما اختلفوا الا في الشرائع ، هذا معنى من معانيه ، وهو يستقيم مع كون الدين في أصله واحدا ، والشرائع متباينة . قال تعالى « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » كانوا أمة واحدة على الجهل البدائي ، « وانزل معهم الكتاب » تعني « لا اله الا الله » ، والشرائع المناسبة ، لجماعتهم ، ولعاداتهم ، وعندئذ ظهر الخلاف ، فجاء قوله تعالى « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » ، وفي وحدة الدين يحدثنا القرآن فيقول « ولله ما في السموات

والأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، واياكم ، ان اتقوا الله ، وأن تكفروا فان لله ما في السموات وما في الأرض ، وكان الله غنيا حميدا » فقوله « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله » يعني أمرناهم ، كما أمرناكم ، أن تقولوا « لا اله الا الله » فان هذه هي قمة التقوى ، وهي « كلمة التقوى » التي عنى بقوله تعالى « اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها ، وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليما » فكلمة التقوى هي « لا اله الا الله » ومن هنا جاء حديث المعصوم « خير ما جئت به أنا والنبيون من قبلي « لا اله الا الله » ..

والى وحدة الدين الاشارة بقوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ان أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ، ويهدي اليه من ينيب » فقوله « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » يعني بين لكم من الدين ما فرض على نوح وهو أيضا ما فرض على آدم ، وهو حين بينه لكم أمافرضه عليكم ، وهذا لا يعني الشريعة وانما يعني التوحيد ، الذي عليه تقوم الشريعة ، فقرينة وحدة التوحيد ، واختلاف الشرائع ، وقرينة قوله « أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما

تدعوهم اليه » وانما يكبر على المشركين ، وهم الملحدون ، أن يدعوا الى التوحيد . وهو ما يحصل دائما ، وانعكاس التوحيد فى التشريع هو الذى يعرض التشريع للمعارضة ، ذلك لأن النفوس لاحظ لها فى التوحيد .

الاسلام كدين بدأ ظهوره بظهور الفرد البشرى الأول ، وقد تحدثنا عن ذلك فى الفصل الذى عقدناه عن علاقة الفرد بالمجتمع وهو ، يحاول فى قمته أن يصاقب الارادة الالهية . وقد تحدثنا عن ذلك فى الحديث عن الأمر التكوينى والأمر التشريعى ، فهو اذن له بداية ، وليست له نهاية ، لأن نهايته عند الله ، « ان الدين عند الله الاسلام »

بدأ ظهور هذه الفكرة الواحدة فى الوثنيات البدائية المتفرقة ، ثم أخذت تتقلب فى مراقى التطور حتى ظهرت الوثنيات المتقدمة ، واطرد بها التقدم حتى ظهرت صور ديانات التوحيد الكتابية ، بظهور اليهودية وظهور النصرانية ، ثم توج ذلك ببعث محمد ، وبنزول القرآن الكريم . وهذه الفكرة الواحدة ذات شكل هرمى ، قاعدته أحط الوثنيات التعدديات ، وأكثرها تعديدا ، وقمته عند الله ، حيث الوحدة المطلقة ، والاختلاف ، كما هو واضح ، بين القاعدة والقمة اختلاف مقدار ، وليس اختلاف نوع .

وهذه الفكرة الواحدة بنبت فى الأرض ، كما نبتت الحياة بين

الماء والطين ، وظلت متجاذبة بين أسباب السماء وأسباب الأرض ، وكلما ألمت بها أسباب السماء رفعت قمتها الى قمة ، ثم اذا ألمت بها أسباب الأرض أخذت قمتها تتطامن نحو القاعدة ، حتى تطمئن ، فتتسع القاعدة ، وتنحط القمة . واتساع القاعدة هذا . انما هو استعداد لارتفاع القمة ، الى قمة جديدة ، أعلى من سابقتها ، عند المامة أسباب السماء المتتابعة . والمامة السماء في الأوج نسميها زمن بعثة . والمامة الأرض في الحضيض نسميها زمن فترة . وهكذا ظلت هذه الفكرة الكبيرة تسير في مراقي الاكتمال كما تسير الموجة بين قمة وقاعدة ، وكل قمة أعلى من سابقتها ، وكل قاعدة أوسع من سابقتها ، الى أن التحمت الأرض بأسباب السماء ، أو كادت . فاستقر وحي السماء الى الأرض ، بين دفتي المصحف ، على الأرض ، ولكنه لا يزال ينتظر التطبيق .

الثالوث الاسلامي

بمجيء موسى ونزول التوراة على بني اسرائيل دخلت الفكرة الاسلامية في طور جديد ، وهو طور ما يسمى بالأديان الكتابية ، وهي اليهودية والنصرانية ، والاسلام . فالتوراة لليهود ، والانجيل للنصارى ، والقرآن للمسلمين . وهذا الطور الجديد ، الذي دخلته الفكرة الاسلامية ببعث موسى ، تميز بالتوسع في التشريع الديني بصورة لم يسبق لها مثيل ، وجميع التشاريع تنسب للرب عن طريق الوحي الملائكي لموسى ،

وقد اتجه التشريع الديني ، الموحى به من الرب الواحد ، الى تنظيم حياة المجتمع ، في كل كبيرة وصغيرة ، وبصورة جماعية واسعة . ولقد تعانقت عقيدة التوحيد مع شريعة التنظيم على هذا المدى الواسع لأول مرة في التاريخ . ثم جاء عيسى بالأنجيل ، ثم اكتمل الثالوث الاسلامي ببعث خاتم النبيين ، والقرآن يحدثنا عن ذلك فيقول « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون * وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا اليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا

الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

ولقد بعث موسى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وكان المجتمع بدائيا غليظا ، وكان الفرد شكسا ، سيء الخلق ، وكان قريب عهد بقانون الغابة ، فدعته التوراة الى الانصاف — الى المعاملة بالمثل — النفس بالنفس ، والعين بالعين — لتكون شريعته ، ولتلطف نزعته ، من بعيد ، فى العفو ، فقالت ، فيما حكاه عنها القرآن ، «فمن تصدق به فهو كفارة له » ، فمن صدق بالقصاص على المعتدى ، فلم يقتص منه ، فإن الله يعوضه من فضله عما أصابه . فذلك قول القرآن ، حين قال : « فيها هدى ونور » فإن الهدى الشريعة ، والنور الأخلاق .. والأخلاق هى الطرف الرفيع من الشريعة ، وهى تخرج عن إلزام الشريعة الى تطوع كل فرد على حدة .

وانما طالبت التوراة بالقصاص ، وكادت أن تقتصر عليه ، لأنه أقرب الى طبيعة النفس البشرية البدائية ، التى مردت على الشكاسة والاعتداء ، فلا يرجى منها كثير فى باب العدل ، بله العفو . ولقد كان بنو اسرائيل كلما دعوا الى واضحة نكصوا عنها . وانهم لفى عصيان دينهم ، وموسى بين ظهرانيهم ، ونصره الله اياهم على عدوهم لا تزال ماثلة ، حين جنحوا لعبادة العجل ، وهذا القرآن يقص علينا من أخبارهم « فأتوا على

قوم يعكفون على أصنام لهم ،فقالوا ياموسى اجعل لنا الهـا كما لهم آلهة ، قال انكم قـوم تجهلون * ان هؤلاء متبر ماهم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم الها وهـو فضلكم على العالمين ؟ » فسكتوا عن غير اقتناع ولا ايمان ، فلمـا ذهب موسى لميقات ربه ، وخلف على قومه هارون أخاه ، اتخذوا العجل ، وقالـوا هذا الهكم ،واله موسى ، فقال تعالى عنهـم فى ذلك « أفلا يرون الا يرجـع اليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعـا ؟ * ولقد قـال لهم هارون من قبل يـا قومى انمـا فتنتم به ، ان ربكم الرحمـن ،فاتبعونى ، واطيعـوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى » ..

والمشاهد كثيرة فى القرآن التى تتحدث عن غلظة اليهود ، وعن كثافتهم ، وكيف انهم كلما دعوا الى رفعـة اخلـدوا الى الأرض ، وهذا أمـر طبيعى فى ذلك الطور المتقدم من اطـوار النشأة ، وهم ، على مـا كانـوا عليه ، قد كانوا صفوة زمانهم .. « ان الله اصطفى آدم ونوحـا وآل ابراهيم وآل عمـران على العالمين » وانما هم آل ابراهيم ،وهم أيضا آل عمران .. « ذرية بعضهـا مـن بعـض ، والله سميع عليم »

ومهما يكن من الأمـر ،فقد جاءت تشاريع التـوراة فى طرف البـداية ، ولـم يتخلص اليهود ، لـدى التطبيق ، مـن الوثنيات التى عاصروها فى مصر زمنا طويلا ، مما زادها ايغالا فى البدائية .

ثم جاء المسيح بتشريع يشد الناس الى طرف النهاية حتى لكأنه رد فعل ، وهو من غير شك كذلك . وهذا أمر يدركه كل عابد مجود ، فانك فى بداية عبادتك تكون نفسك صماء ، لأن روحك تكون مكدرة بظلماتها ، فاذا ما احلت باساليب العبادة النبوية الاحمديه .فصمت صياما صمديا لثلاثه ايام وليلتين ، أو لسبعة أيام وست ليال ، مع موالاة الصلاه ، وبخاصة صلاة الثلث الاخير من الليل ، فانك تبدأ تشعر بان نفسك احدث تشد الى الطرف الآخر ، فاذا ثابرت على موالاه هذا النهج الاحمدى لمدة كافية . فان روحك ، بعد أن كانت مطوية تحت جناح نفس كثيفة مظلمة ، تنطلق ، فى لطف وخفه ، الى شاطىء الوادى الايمن ، وتظل انت ، كمدول لساعة . تتأرجح بين اقصى الشمال ، واقصى اليمين . ويكون مثلك الاعلى أن تثبت فى الوسط ، وهيهات !هيهات ! فان ذلك مقام « مازاغ البصر وما طغى » .

هذا الأمر الذى يجرى للفرد العابد المجود ، من بروز ثالوثه ، هو ما حصل للانسانية المجاهدة ، فى هذا الامد الطويل ، ببروز ثالوثها ، من الأديان الثلاثة . . اليهودية والنصرانية والاسلام . . ذلك بان تاريخ الفرد البشرى يحكى تاريخ المجتمع البشرى برمته . . وهذا هو السر فى ان المسيح جاء بروحانية مفرطة ، فى مقابل مادية مفرطة (الأولى من الافراط والثانية من التفريط) ـ وجد عليها اليهود . ولقد قال المسيح لتلاميذه « لا

تظنوا أني جئت لأنقض الناموس،او الأنبياء .. ما جئت لأنقض بل لأكمل » وهذا ما أشار اليه القرآن بقوله من الآيات السوابق « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة،وهدى وموعظة للمتقين » فهو مصدق لما بين يديه من التوراة .وانجيله مصدق لما بين يديه من التوراة ، فهو لا ينقض ، وانما يكمل ، كما قال ، ومعنى يكمل انه يطور ، ويمدد المدى ، التي قصر بها حكم الزمن ، عن بلوغ غاياتها ، الى غاياتها أو تكاد .

أسمعه وهو يعلم تلاميذه فيقول «سمعتم انه قيل عين بعين، وسن بسن ، وأما أنا فاقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا » ولقد بعث المسيح في وقت كانت السلطة الزمنية . على اليهود ، للرومان ، وكانت الشريعة اليهودية معطلة ،في بعض جوانبها ، من جراء ذلك ، فجاءت دعوة المسيح وكأنها ، من الناحية العملية ، لا تعنى بتنظيم حياة المجتمع ، وانما تقدم وصايا خلقية ، ومد في هذا المظهر كون السيد المسيح لم يعمر طويلا ، فانه لم يلبث في الدعوة الا ثلاث سنوات .

والحق أن تشريع اليهود هو تشريع النصارى ، الا حيث تناوله المسيح بالتطوير ، ففي هذه الحالة يصبح تشريع

النصارى قد حذف من تشريع اليهود ، بالنص الوارد عن المسيح . وهذا الأمر غير مدرك ، وغير معمول به عند النصارى .

« وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور » وهدى هنا أيضا تعني شريعة ، ونور تعني أخلاق . والانجيل أدخل في الأخلاق من التوراة ، ولذلك فانه قد جعل العفو شريعته ، وبها جاء أمر رسوله ، وحين قال المسيح « سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن » فانه قد جاء بطرف البداية ، وهو طرف التفريط في الروح ، وحين قال « وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا » فقد جاء بطرف يشبه النهاية ، وهو طرف الأفراط في الروح .

ثم جاء الاسلام ، على عهد محمد ، بين طرفي الافراط والتفريط ، فكأنه من « ثالوث الاسلام » مقام « ما زاغ البصر ، وما طغى » من ثالوث القوى المودعة في البنية البشرية ، قال تعالى في هذا « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .. « أمة وسطا » بين الأفراط والتفريط ، و « لتكونوا شهداء على الناس » يعني لتكون فيكم كل الخصائص التي يلتقي عندها الناس ، وقوله « أهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » فالصراط المستقيم هو الوسط بين الطرفين اللذين يكون في احدهما غضب الله ، وهو طرف

التفريط ، وفى ثانيهما الضلال ، وهو طرف الأفراط فى الروحانية ، ومعنى « الذين أنعمت عليهم » المسلمون ، وإلى ذلك الاشارة بقوله « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » ولما كان الاسلام الذى جاء به محمد وسطا بين اليهودية والنصرانية ، فان القرآن قد جاء فى سياقه بالجمع بين خصائص اليهودية ، وخصائص النصرانية ، وذلك حين يقول ، مثلا « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا ، وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » فقوله « جزاء سيئة سيئة مثلها » يقابل قول التوراة الذى حكاه المسيح حين قال « عين بعين وسن بسن » وهو لا يحكيه تماما ، وانما فيه تطوير بعبر من القصاص ، ليمهد للعفو ، وذلك بما يسمى عمل المقتص ممن اعتدى عليه « سيئة » . وقوله « فمن عفا ، وأصلح ، فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » يقابل قول الانجيل الذى حكاه المسيح حين قال « وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا » وهو لا يقابله تماما . فان قول القرآن أبلغ من عبارة الأنجيل هذه ، فى التسامح ، وللمسيح قولة أخرى تقابل « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » ، وذلك حيث يقول « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم » ..

وكون الاسلام وسطا بين طرفين ، طرف البداية وطرف النهاية ، وجامعا لخصائص الطرفين ، جعل الاسلام نفسه ذا طرفين : طرف أقرب الى البداية، وطرف أقرب الى النهاية .. وهذا شأن كل وسط بين طرفين ،فهو كالولد الذي يجيء جامعا لخصائص الوالد ، وخصائص الوالدة ، على نسب قد تتفاوت ، ولكنها لا تنعدم .

فاذا كان هذا الحديث صحيحا ، وهو صحيح ، بلا أدنى ريب ، فان له أثرا بعيدا في مستقبل الفكر الاسلامي ، ذلك بأنه يعني ان الاسلام ، كما جاء به القرآن ، ليس رسالة واحدة ، وانما هو رسالتان :رسالة في طرف البداية ، أو هي مما يلي اليهودية ، ورسالة في طرف النهاية ، أو هي مما يلي المسيحية ، وقد بلغ المعصوم كلتا الرسالتين ، بما بلغ القرآن، وبما سار السيرة ، ولكنه فصل الرسالة الأولى تشريعه تفصيلا، وأجمل الرسالة الثانية اجمالا ، اللهم الا ما يكون من أمر التشريع المتداخل بين الرسالة الأولى ،والرسالة الثانية ، فأن ذلك يعتبر تفصيلا في حق الرسالة الثانية أيضا ، ومن ذلك ، بشكل خاص، تشريع العبادات ، ما خلا الزكاة ذات المقادير .

الباب الخامس

الرسالة الأولى

الرسالة الأولى هي التي وقع في خفها التبيين بالتشريع وهي رسالة المؤمنين ..والمؤمنون غير المسلمين ، وليس الاختلاف بين المؤمن والمسلم اختلاف نوع،وانما هو اختلاف مقدار ، فما كل مؤمن مسلم ، ولكن كل مسلم مؤمن .

والاسلام بداية ، ونهاية .فكما أن الزمان والمكان لولبيان ، فكذلك الأفكار ، فانها لولبية ، يسير الصاعد في مراقيها في طريق لولبي ، يرتفع في المراقي كلما يدور على نفسه ، حتى اذا تمت دورة على نقطة البداية ارتفع السالك سمتا موقعا ، وجاءت نهاية تلك الدورة على صورة تشبه البداية ، ولا تشبهها .فكذلك الشأن،فأن السالك في مراقي الاسلام يسير على معراج لولبي ، يتصمم نحو مركزه ، كلما ارتفع نحو قمته ، ويدور على نفسه دورة ، كلما رقي سبع درجات ، أولها الاسلام ، ثم الايمان ، ثم الاحسان ، ثم علم اليقين ، ثم عين اليقين ، ثم حق اليقين ،ثم ،في نهاية الدورة ، الاسلام .

وأمة البعث الأول ــ أمة الرسالة الأولى ــ اسمها المؤمنون ، لدى الدقة ، وانما اخذت اسم المسلمين ، الذي يطلق عليها عادة ، من الاسلام الأول ، وليس ، على التحقيق ،

من الاسلام الاخير .

وانت حين تقرأ قوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » يجب ان تفهم ان المقصود الاسلام الاخير ، وليس ، على التحقيق ، الاسلام الأول ، ذلك أن الاسلام الاول ينسخه عرفه ، واما كان الاسلام الذي عصم الرقاب من السيف ، وقد حبس في حظيرته رجال أكل النفاق قلوبهم ، وانطوت ضلوعهم على بغض النبي وأصحابه — ثم لم تفرج ضلوعهم عن خبثها ، وذلك لأن المعصوم قد قال « أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فاذا فعلوا ، عصموا مني دماءهم ، وأموالهم ، الا بحقها ، وأمرهم الى الله » ولقد نشأ الاسلام بين القريتين مكة والمدينة . بدأ في مكة ، فلما اهزم فيها هاجر الى المدينة ، حيث انتصر ، وما كان له أن ينتصر في مكة ، ولم ينتصر . « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون » .

ما انتصر الاسلام ، وانما انتصر الايمان . ولقد جاء القرآن مقسما بين الايمان ، والاسلام ، في معنى ما جاء انزاله مقسما بين مدني ، ومكي . ولكل من المدني والمكي مميزات يرجع السبب فيها الى كون المدني مرحلة ايمان ، والمكي مرحلة اسلام .

فكل ما وقع فيه الخطاب بلفظ « يأيها الذين امنوا » فهو

مدني، ماعدا ماكان من أمر سورة الحج ، وكل ما ورد فيه ذكر المنافقين فهو مدني ، وكل ما جاء فيه ذكر الجهاد ، وبيان الجهاد ، فهو مدني ، هذا الى جملة ضوابط أخرى .

واما المكي فمن ضوابطه ان كل سورة ذكرت فيها سجدة فهي مكية ، وكل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية ، سوى سورتي البقرة ، وآل عمران ، فانهما مدنيتان ، وكل ما وقع فيه الخطاب بلفظ « يايها الناس » أو «يابني آدم » فانه مكي ، سوى سورة النساء ،وسورة البقرة ، فانهما مدنيتان وقد استهلت أولاهما بقوله تعالى « يأيها الناس اتقوا ربكم» وفي أخراهما « يأيها الناس أعبدوا ربكم » . والشواذ عن الضوابط ، بين المكي والمدني ،انما سببها التداخل بين الايمان والاسلام ، فانه ، كما ذكرنا ،كل مؤمن مسلم في مرتبة البداية ، وليس مسلما في مرتبة النهاية ،وكل مسلم مؤمن ، ولن يعلك .

والاختلاف بين المكي والمدني ليس اختلاف مكان النزول ، ولا اختلاف زمن النزول ، وانما هو اختلاف مستوى المخاطبين . فيأيها الذين آمنوا خاصة بأمة معينة . ويأيها الناس فيها شمول لكل الناس . فاذا أعتبرت قوله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ،عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » ـ وقوله تعالى « ان الله بالناس لرءوف رحيم » وادركت فرقا ،فأعلم انه الفرق بين المؤمن والمسلم ، وهو مستوى كل من الخطابين . وورد خطاب

المنافقين في المدينة ، ولم يرد في مكة ، مع ان زمن النزول في مكة ثلاث عشرة سنة ، وفي المدينة عشر سنوات ، أو يقل ، وذلك لأنه لم يكن بمكة منافقون ، وانما كان الناس أما مؤمنين ، أو مشركين ، وما ذلك الا لأن العنف لم يكن من أساليب الدعوة ، بل كانت آيات الاسماح هي صاحبة الوقت يومئذ ، « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو اعلم بالمهتدين » واخواتها ، وهن كثر .

وحين تمت الهجرة الى المدينة ، ونسخت آيات الاسماح ، وانتقل حكم الوقت الى آية السيف ، ونظائرها ، « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا ، واقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم . » ودخل الخوف في ميدان الدعوة ، واضطرت نفوس الى التقية ، اسرت أمرا واعلنت غيره ، ودخل بذلك النفاق بين الناس .

وكون ذكر الجهاد ، وبيان الجهاد ، من ضوابط الآيات المدنية ، لا يحتاج الى تعليل .

وأما كون المكية من ضوابطها ذكر السجدة ، فذلك لأن السجدة اقرب الى الاسلام منها الى الايمان . وفي حديث

المعصوم :«اقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد » وفي القرآن الكريم « واسجـد ، واقترب »وفيه سر عظيم من اسرار السلوك الى منازل العبودية .

ومنها ان تفتتـح السور بحروف التهجي ، وهذا بـاب عظيم . وفيه سر القرآن كلـه ،والحديث عنه لا يتسع له هـذا المقام . وانما نكتفي منه بما نحن بصدده من بيان الفرق بين رسالتي الاسلام . وعـدد الحروف التي جرى بها الافتتـاح أربعة عشر حـرفـا ، وهي بـذلك نصف الحـروف الأبجـدية . وقـد افتتحت بها تسع وعشرون سورة،على أربع عشرة تشكيلة ، هي : ألـم ، المـص ، الر ، المر ،كهيعص ، طـه ، طسم ، طس ، يـس ، ص ، حم ــ عسـق ،ق ، ن . وكل هذه التشكيلات ورد بعدها ما يفيد انها القرآن ،وأوضح شيء في ذلك قوله تعالى من سورة البقرة : « ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيـه ، هـدى للمتقـين » ذلك اذا وقفت على « فيه » ، أو شئـت وقفت على « لا ريب » فجـاءت الآيتـان هكذا « ألم * ذلك الكتاب لا ريب ، فيـه هدى للمتقين »وفي كلتيهما فان الاشـارة بذلك الى « ألـم » .

ومعنى الحرف أنه من كل شيء طرفه ، وشفيره ، وحده ، ومنه « حرف الجبل » وهو أعلاه المحدد الرفيع .

ولقد مـرت على حروف التهجي حقب سحيقة وهي تتقلب

فى صور بدائية جـدا ، قبل أن تأخذ شكولها المعـاصرة ، ذلك بأن الحاجـة الى الكتابة انما نشأت مع الحاجـة الى اللغة فى وقت واحد ، وتلك حاجة سبقت الحاجة الى العرف الذى سبقت اشارتنا اليه ، حين قلنا أن المجتمع الاول نشأ حول عرف قيد حريات الفرد ، وأوجب رعاية حدود معينة ، واجبة الرعاية . فالحاجة الى وسيلة التفاهم ، ونقل الأفكار ، حاجة أملتها ضرورة المعيشة فى مجتمع ، ولقد شعر بضرورة الاجتماع جميع أصناف الحيوان ، ولكن الانسان هو وحده الذى ظفر منه بحاجته ، وذلك لقدرته على التفاهم عن طريق « تقليد » أصوات الأشياء ، والأحياء ، ومحاكاة الحركات ، وقد ساعده على ذلك أستواء قامته ، ولباقة حركات يديه ورأسه ، وارتفاع أوتار صوته . فالى ملكة « التقليد » التى انفرد بتجويدها الانسان عن سائر الحيوان ، يرجع الفضل فى نشأة اللغة ، ونشأة الكتابة ، وفى اطراد ارتقائهما ، من بدايات بسيطة ، ساذجة ، الى أدوار شارفت الاتقان فى عصرنا الحاضر . بل أنه الى هذه الملكة التى وهبها الله الانسان ، يرجع الفضل فى التعليم والاتقان . فانه ، من أجل تجويد التقليد ، لابد من استيعاب الأشياء المراد تقليدها استيعابا عقليا كاملا ، ثم لابد من التناسق بين أدوات التقليد وبين العقل ، سواء كانت أدوات التقليد اليدين ، أو الرأس ، أو الوجه ، أو العينين . والى هذا المجهود المبذول فى تناسق حركات التقليد يرجع الفضل فى توحيد العقل والجسد . وهو

توحيد لم يكتمل بعد ولا يزال يطرد .

ومع أن الحاجة الى الكتابة ظهرت في نفس الوقت مع الحاجة الى اللغة الا أنها لم تكن في مستوى واحد من الالحاح ، ومن الضرورة . ولقد أغنت الاشارة عنها الى ردح طويل . ولقد بدأت الكتابة برسم الأشياء ، والحيوان المراد التعبير عنها . أو ربما برسم حادثة برمتها يراد نقلها الى أحد لم يكن شاهدها . ولقد كان رسم صورة الحيوان من مراسيم الصيد ، وهي مراسيم تتصل بالعقيدة والعبادة ، فكأن الصياد كان يعتقد أنه يحرز الحيوان في الصيد ، حين يحرز صورته في كهفه الذي يقيم فيه . وذلك للصلة التي اعتقدها بين الصورة والروح .

ثم تطور الفهم فأصبح الفنان يجتزىء برسم جزء معين للحيوان للتمييز عن سائره ، كان يرسم رأس الثور فقط بدلا من رسمه كله . ثم اطرد التطور في تبسيط صور الأشياء والأحياء ، حتى جاءت الحروف الأبجدية الحاضرة ، في سحيق الآماد ، وبعد تطور بطيء ، طويل ..

وعدد حروف التهجي يختلف في اللغات المختلفة ، وهو في لغتنا ثمانية وعشرون حرفا ، أولها الألف وآخرها الغين ، وهي في ذلك أكمل اللغات .

واذ دفعت الضرورة الى اللغة ، دفعت أيضا الى الحساب ، وقد نشأ الحساب نشأة ساذجة ، وبدائية أيضا ، وأعان عليه ،

وبمثه فى الذهن ، أصابع اليدين والقدمين ، فانها ظاهرة تبعث على التأمل ، والتعجب ، ولقد كان العد ، ولا يزال ، يمارس على أصابع اليدين ، وهذا من الأسباب التى جعلت العشرة تتخذ أساسا للعد . ولم تظهر الأرقام التى نعرفها الآن الا بعد زمن طويل من التطور من الصور البدائية للأعداد . ولقرينة الرمز، والاشارة ونقل العبارة ، التى ترسط بين اللغة والحساب استعملت أحرف الهجاء بدلا من الأرقام منذ زمن متقادم ، كما هو معروف فى الأرقام الرومانية،وهم قد كانوا مسبوقين الى ذلك باليونانيين . ولقد سرى هذا الاستعمال الى اللغة العربية ، فجعلت الأحرف التسعة الأولى لتنوب عن الآحاد التسعة ، والحرف العاشر وما بعده يدل على العقود : الى الحرف الثامن عشر ، ومن الحرف التاسع عشر والى الثامن والعشرين تدل على المئات ، فأصبح بذلك الرقم المقابل لنهاية الأبجدية الألف ، وهذا هو الذى حملنا نقول أن اللغة العربية أكمل اللغات ،وذلك لما للرقم « ألف » من قيمة روحية« وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » أو حين يقول « انا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر » وهى تعنى ألف عام . وحين يقول «من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . والقرآن كله ذو شكل هرمى ..له قاعدة ، وله قمة ، وهو يتفاوت بين القاعدة والقمة فى معان تدق كلما ارتقت نحو القمة . فهو تفاوت بين حسن وأحسن . وفى قمة القرآن الحروف الهجائية

التى افتتحت بها السور ، وهذه الحروف ، فى ذاتها ، ذات شكل هرمى أيضا ، يتفاوت بين قاعدة وقمة . فالحروف على ثلاث درجات :

الحروف الرقمية ، والحروف الصوتية ، والحروف الفكرية .

فالحروف الرقمية هى الثمانية والعشرون المعروفة ، ومنها يتألف الكلام الظاهر . والحروف الصوتية لا حصر لها ، وهى ، المسموع منها ، وغير المسموع بالحاسة ، تؤلف الخواطر التى تجيش فى العقل الواعى . وأما الحروف الفكرية فهى مكنون كل شيء ، وهى كلمات الله التى قال عنها ، جل من قائل « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا » .ومن هذه الحروف الفكرية تتكون الخواطر المتمكنة فى العقل الباطن ، وفى سويدائه الحميمة الازلية ، وعلى حواشيه الدنيا . والى الحروف الرقمية ، والحروف الصوتية ، والحروف الفكرية ، الاشارة بقوله تعالى « وان تجهر بالقول ، فانه يعلم السر ، واخفى » فالقول

المجهور به يقابل الحروف الرقمية ، والسر يقابل الحروف الصوتية ، وأما الحروف الفكرية فيقابلها « سر السر » وهو المعبر عنه بكلمة « وأخفى » ومن هذه الحروف الفكرية ما لا يسمع الا بالحاسة السابعة .

والى هذه المراتب الثلاث أيضا الاشارة بقوله تعالى « وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا » وهى آية

فى الجهر ، وفى السر ، أى فى القول باللسان وفى الخواطر ، وأما سر السر فأن فيه قوله تعالى « وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما » . والظلم هنا الشرك الخفى ، وهو الكبت الذى به انقسمت الشخصية البشرية الى عقل واع ، وعقل باطن ، بينهما تضاد وتعارض .

ولقد تحدثنا عن الكبت فيما سلف من هذا الكتاب ، وقلنا انه بعمل الخوف . وقلنا ان الحرية الفردية المطلقة تتطلب الحرية من الخوف ، ومن أجل الحرية من الخوف ، على اطلاقه ، وجب تنظيم المجتمع على صورة تؤمن الفرد من الخوف على الرزق ، والخوف من تسلط الحاكم ، والخوف من تعنت الرأى العام . ثم وجب اعطاء الفرد فكرة متكاملة عن علاقته بالبيئة ، وعن حقيقة البيئة التى عاش فيها أسلافه ، والتى لا يزال يعيش فيها هو ، حتى يستطيع أن يتحرر من العقد النفسية التى ترسبت فى عقله الباطن ، وورثها صاغرا عن كابر ، فى سحيق الآماد .

ولقد تحدثنا عن اسلوب القرآن العكسى ، فى تعليم الانسان ، والطردى ، وذلك على غرار الآية الكريمة « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد؟» . وقلنا ان هذا يعنى فى السلوك ان السالك يجاهد فى ترك مخالفات الأعمال ، وان سمح للنفس فى تلك المرحلة بمخالفات اللسان ، كتدريج لها ، فان هو

استقامت له المجاهدة فى هـذه المرتبة ، زحف الى ترك مخالفات اللسان ، وان ترك للنفس سعة ، فى هذه المرحلـة ، فى مخالفـة الخواطر فى العقل الواعى ، بأن سمح بجولان الخواطر الشريرة فيه ، وذلك أيضا تدريج للنفس ، ثم ان هو استقامت له المجاهدة ، فى هذه المرتبة أيضا ، انتقل الى تحريم جيشـان الخـواطر فى العقل الواعى ، وهكذا الى ان يصل الى تنقية خواطر العقـل الباطن ، ويومئذ تتم سلامة القلب ، فيرى فى صفوها الله العظيـم ، ويبدأ من هناك الاسلوب الطردى فى التعليم . ويكون السالك هنا فى سلام مع نفسـه ، ومع ربه ، ومع الأحياء ، والاشياء . وهذا هـو الاسلام فى قمة وهو الذى أمر الله تبارك وتعـالى المؤمنين به حين قال « يأيها الذين آمنـوا ادخلـوا فى السلـم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطـان ، انه لكم عدو مبين » فالسلم هنا هو السلام ، وهو الاسلام فى قمة .

امـة المؤمنين

قلـنا لقـد جـاء القرآن مقسما بين الايمان والاسـلام ، كما جاء انزاله مقسما بين مدنى ومكى ، وكان المكى سابقا على المدنى ، وبعبارة اخرى ، بدىء بدعوة الناس الى الاسلام فلمـا لم يطيقوه ، وظهر ظهورا عمليـا قصورهم عن شأوه ، نزل عنـه الى ما يطيقون . والظهور العملى حجة قاطعة على الناس ، وهـو المعنى بقوله تعالى ، « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو اخباركم » . حتى نعلم علم تجربة لكم ، والا فان علم الله غير

حادث ، و « المجاهدين » يعني الجهاد الاكبر ، وهو مجاهدة النفس ، « والصابرين » يعني الصابرين عن الله، «ونبلو أخباركم» يعني نستخرج خواطركم المكبوتة في العقل الباطن ـ في سرسركم .

والآيات الدالة على النزول من أوج الاسلام ، الى مرتبة الايمان كثيرة ، نذكر منها قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون » فلما قالوا أينا يستطيع ان يتقي الله حق تقاته ؟ نزل قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، واطيعوا ، وأنفقوا خيرا لانفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ولما نزل قوله تعالى «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، اولئك لهم الأمن وهم مهتدون » شق على الناس فقالوا : يارسول الله اينا لا يظلم نفسه ؟ فقال « انه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ؟ (يابني لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم) انما هو الشرك » فسرى عنهم ، لأنهم علموا انهم لم يشركوا مذ آمنوا .. والحق ان المعصوم فسر لهم الآية في مستوى المؤمن .. وهو يعلم ان تفسيرها في مستوى المسلم فوق طاقتهم ، ذلك بان « الظلم » في الآية يعني الشرك الخفي على نحو ما ورد في آية سر السر «وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما » وقد وردت الاشارة اليها .

ولقد قيل انه لما نزل قوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، اولئك لهم الأمن وهم مهتدون » قال النبي

« قيل لي انت منهم » والنبي ليس من المؤمنين ، وانما هو اول المسلمين . « قل ان صلاتي ، ونسكي ، ومحياي ، ومماتي ، لله رب العالمين * لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وانا أول المسلمين » .

وقلنا ان أمة الرسالة الأولى هي « المؤمنون » والقرآن ، حين يسمي المسلمين في عهد موسى يهودا أو « الذين هادوا » ، ويسمي المسلمين على عهد عيسى « نصارى » يسميهم ، على عهد البعث المحمدي الأول ، « المؤمنين » أو « الذين آمنوا » اسمعه يقول « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلهم اجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » واسمعه يقول « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون ، والنصارى ، من آمن بالله ، واليوم الاخر ، وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » وهناك آية هي آية في بيان ما نحن بصدده ، وذلك حين يقول « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدا » فهو يسميهم « الذين آمنوا » ، ثم يندبهم الى الايمان .

ان كل من له بصر بالمعاني اذا قرأ قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم

مسلمون » ثم قوله تعالى« فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا ، وأطيعوا ، وانفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » علم أن هناك معنيين - معنى أصليا ومعنى فرعيا . وإنما المراد ، في المكان الأول ، المعنى الأصلي. وإذ أملت الضرورة تأجيله ، انتقل العمل الى المعنى الفرعي ، ريثما يتم التحول ، من الفرع الى الأصل ، ميقات الظرف المناسب لذلك . والظرف المناسب هو الزمن الذي يصبح فيه الاستعداد البشري ، الفردي والجماعي ، وتم الطاقة . والى نقص الاستعداد هذا يرجع السبب في تأجيل أصول الدين والعمل بالفروع .. واليك بيان ذلك :ـ

الجهاد ليس اصلا في الاسلام

الأصل في الاسلام ان كل انسان حر ، الى أن يظهر ، عمليا ، عجزه عن التزام واجب الحرية . ذلك بأن الحرية حق طبيعي ، يقابله واجب الأداء ، وهو حسن التصرف في الحرية . فاذا ظهر عجز الحر عن التزام واجب الحرية صودرت حريته ، عندئذ ، بقانون دستوري ، والقانون الدستوري ، كما سلفت الى ذلك الاشارة ، هو القانون الذي يوفق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، وقد قررنا آنفا ان ذلك هو قانون المعاوضة .

هذا الاصل هو أصل الاصول ، وللوفاء به بدئت الدعوة

الى الاسلام بآيات الاسماح ،وذلك فى مكة ، حيث نزل«وأدع الى سبيل ربك بالحكمة ،والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » وأخواتها ، وهى كثيرات ، وقد ظل أمر الدعوة على ذلك ثلاث عشرة سنة ،نزل أثناءها كثير من القرآن المعجز ، وتخرج أثناءها من المدرسة الجديدة ، كثير من النماذج الصالحة ، من الرجال والنساء والصبيان . وكان المسلمون الاولون يكفون اذاهم عن المشركين ، ويحتملون الاذى، ويضحون ، فى صدق ومروءة، فى سبيل نشر الدين ، بكل أطايب العيش ، لا يضعفون ولايستكينون ... يبينون بالقول البليغ ، وبالنموذج الصادق ،واجب الناس ، فى هذه الحياة ، نحو ربهم ، باخلاص عبادته ،ونحو بعضهم ، بصلة الرحم ، واصلاح ذات البين .

والله سبحانه وتعالي يقول« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ولقد أعطانا من نعم العقل ، والجسد ، وأطايب العيش ، ما يمكننا من عبادته وعرفان فضله . ويقول « ان الله يأمر بالعدل ، والاحسان ، وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون » ويقول « ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولاتقربوا الفواحش ،ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به ، لعلكم تعقلون» .. كل ذلك جاء به القرآن فى

الدين الجديد ، وبلغه النبي وأصحابه ، بالقول ، وبالسيرة ، وفيه لأمر الناس صلاح وفلاح ،فاذا أصر الناس ، بعد ذلك ، على عبادة الحجر الذي ينحتون،وعلى قطع الرحم ، وقتل النفس ، ووأد البنت ، فقدأساءوا التصرف في حريتهم ، وعرضوها للمصادرة، ولم يكن هناك قانون لمصادرتها، فلم يبق الا السيف ، وكذلك صودرت . وبعد أن كان العمل بقوله تعالى « فذكر انما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر »انتقل الى قوله تعالى « الا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر » فكأنه قال أما من تولى وكفر فقد جعلنا لك عليه السيطرة ، فيعذبه الله بيدك العذاب الأصغر بالقتال ، ثم يعذبه العذاب الأكبر بالنار . « ان الينا أيابهم * ثم أن علينا حسابهم » واعتبرت الآيتان السابقتان منسوختين بالآيتين التاليتين ، وكذلك نسخت جميع آيات الاسماح ، وهي الأصل ،بآية السيف واخواتها ، وهي فرع أملته الملابسة الزمانية ،وقصور الطاقة البشرية ، يومئذ، عن النهوض بواجب الحرية ،ومن هنا جاء حديث المعصوم حين قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله . فاذافعلوا ، عصموا مني دماءهم وأموالهم ، الا بحقها ، وأمرهم الى الله » .

وقد ظن بعض علماء المسلمين ان حروب الاسلام لم تكن الا دفاعية ، وهذا خطأ قادهم اليه حرصهم على دفع فرية بعض المستشرقين الذين زعموا أن الاسلام انما استعمل السيف

لينتشر . والحق ان السيف انما استعمل لمصادرة حرية أسيء استعمالها ، وقد تلبث بذلك ثلاثة عشر عاما يدعو الى واضحة من أمر الفرد ، وأمر الجماعة ، فلما لم ينهضوا بأعباء حريتهم ، ولما لم يحسنوا التصرف فيها ، نزع من أيديهم قيامهم بأمر أنفسهم ، وجعل النبي وصيا عليهم ، حتى يبلغوا سن الرشد . فهذا دخلوا في الدين الجديد ، فحرموا من دمائهم وأموالهم ما حرم ، ووصلوا من رحمهم ما أمر به أن يوصل ، رفع عنهم السيف ، وجعلت مصادرة حرية المسيء في القانون الجديد ، وكذلك جاء التشريع الاسلامي ، ونشأت الحكومة الجديدة .

وكل ما يقال عن تبرير استعمال الاسلام للسيف هو انه لم يستعمله كمدية الجزار ، وانما استعمله كمبضع الطبيب . وكان عنده الحكمة الكافية ، والرحمة الكافية ، والمعرفة الكافية ، التي تجعله طبيبا لأدواء النفوس . ولقد قال تعالى في ذلك « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب ، والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز » قوله « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » يعني بالدلائل القواطع على صدق دعواهم ، « وأنزلنا معهم الكتاب » يعني « لا اله الا الله » و « الميزان » يعني الشريعة توزن ما بين العبد والرب ، وما بين العبد والعبد . « وليقوم الناس بالقسط » يعني

ليعدلوا في المعاملة ، وقوله «وأنزلنا الحديد ، فيه بأس شديد ، ومنافع للناس » يعني وشرعت القتال بالسيف في مصادرة حرية من لا يحسن التصرف في الحرية ، حتى يرده بأس السيف الى صوابه ، فيحرر يومئذ حريته ، وينفع وينتفع بحياته .. هذا بالطبع الى ما للحديد من منافع أخرى لا نحتاج منا الى اشارة .

وقوله « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » يعني علم تجربة لكم ، لأن القتال كره للنفوس .. ليعلم من يحتمل مكروه الحرب في سبيل الله لنصرة المستضعفين ، باقامة القسط بين كل فرد وبين نفسه ، وبينه وبين الآخرين وقوله « ان الله قوي عزيز » يعني بالقوي الذي لا يحتاج لنصرة ناصر ، و « عزيز » يعني لا ينال ما عنده الا به ، وما عنده في هذا المقام هو النصر ، فكأنه يشير اشارة لطيفة الى قوله تعالى « ان تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم » ان تنصروا الله بنصرة أبنائه لاقامة القسط ، ينصركم الله على أنفسكم . وهذا يعني ، بعبارة أخرى ، أن تنصروا الله في الجهاد الأصغر ، ينصركم في الجهاد الأكبر ، حيث لا قوة لكم الا به ، ولا ناصر لكم الا هو . « ويثبت أقدامكم » يعني يطمئن قلوبكم . وتثبيت الاقدام الحسي غير محمود في مقام النصر ..

ومن الحكمة في طب أدواء القلوب أن تبدأ الدعوة باللين ، وألا يلجأ الى الشدة الا حين لا يكون منها بد ، فان الكي آخر الدواء . وما العذاب بالقتل بالسيف في الدنيا الا طرف من عذاب الآخرة بالنار ، وليس لعذاب الآخرة موجب الا الكفر ،

وكذلك الأمر في القتال .. فإن هو أضاف الى الكفر دعوة الى الكفر ، وصداً عن سبيل الله ، فقد أصبح قتاله وقتله أوجب ، والا فهو مقاتل بكفره لا محالة : قال تعالى « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا الى جهنم يحشرون * ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعا ، فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون * قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وأن يعودوا فقد مضت سنة الأولين * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فأن انتهوا فان الله بما يعملون بصير » تأمل قوله تعالى « والذين كفروا الى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب » تجد ان موجب العذاب هو الكفر « ما يفعل الله بعذابكم أن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما » . وقوله « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » يعني حتى لا يكون شرك ، ودعوة الى الشرك ، وصد عن سبيل الايمان . وقوله « ويكون الدين كله لله » هو غرض القتال الأصلي « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » ذلك أمر الله . والله بالغ أمره ولو كره الكافرون .

وقال تعالى في موضع آخر « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فأن انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » والظالمون على مستويين : مستوى من يجعل الدين لغير الله ، ويصر على ذلك . ومستوى من يذعن لله بالطاعة ولكنه يتعدى على حقوق الناس ،

ويحيف عليهم . وفى الآية أمر بمصادرة حرية من يسيء التصرف فى الحرية . وانما تكون المصادرة على مستوى الاساءة . فللجاحدين قانون الحرب ، وبأس الحديد . وللمعتدين على حقوق الناس قانون السلام ، وفصل الحقوق . وهذا هو معنى قوله تعالى « فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

والنزول من المعنى الأصلى الى المعنى الفرعى يعنى النزول من مستوى الاسلام الى مستوى الايمان ، ومن ههنا يجب أن يفهم قوله تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » قوله « وأنزلنا اليك الذكر » يعنى القرآن كله، مشتملا على الأصل ــ الاسلام ــ والفرع ــ الايمان . وقوله « لتبين للناس ما نزل اليهم » يعنى لتفصل بالتشريع ، وألوان التبيين ، للمؤمنين ما نزل الى مستواهم . قوله « ولعلهم يتفكرون » يعنى لعل الفكر ، أثناء العمل بالفروع ، يعودهم الى الأصل الذى لم يطيقوه أول امرهم . وفى ذلك اشارة ناعمة اللطف الى السير فى مراقى الاسلام المختلفة ، مبتدئا بالأسلام الأول . صاعدا بوسائل الفكر الصافى ، والقول السدد ، والعمل المخلص . فأنه « اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » .

نخلص مما تقدم الى تقرير أمر هام جدا ، وهو أن كثيرا من صور التشريع الذى بين أيدينا الآن ليست مراد الاسلام

بالأصالة ، وانما هي تنزل لملابسة الوقت والطاقة البشرية .

الرق ليس أصلا في الاسلام

فالأصل في الاسلام الحرية ، ولكنه نزل على مجتمع الرق فيه جزء من النظام الاجتماعي والاقتصادي . وهو مجتمع قد ظهر عمليا أنه لا يحسن التصرف في الحرية ، مما أدى الى نزع قيام أفراده بأمر أنفسهم ، وجعل ذلك الى وصي عليهم ، وقد رأينا أن هذا أدى الى شرعية الجهاد . ومن أصول الجهاد في سبيل الله أن يعرض المسلمون على الكفار أن يدخلوا في الدين الجديد ، فان هم دخلوه ، والا فان يعطوهم الجزية ، ويعيشوا تحت حكومتهم ، مبقين على دينهم الأصلي ، آمنين على أنفسهم . فان هم أبوا عليهم هذه الخطة أيضا ، حاربوهم . فاذا هزموهم أخذوا منهم سبايا ، فزاد هؤلاء في عدد الرقيق السابق للدعوة الجديدة .

والحكمة في الاسترقاق تقوم على قانون المعاوضة . فكأن الانسان عندما دعي ليكون عبدالله فأعرض ، دل اعراضه هذا على جهل يحتاج الى فترة مرانة ، يستعد أثناءها للدخول ، عن طواعية ، في العبودية لله ، فجعل في هذه الفترة عبدا للمخلوق لتمرس على الطاعة التي هي واجب العبد . والمعاوضة هنا هي أنه حين رفض أن يكون عبدالرب ، وهو طليق ، وأمكنت الهزيمة منه ، جعل عبدا للعبد ، جزاء وفاقا . « ومن يعمل ،

مثقال ذرة ، شرا ، يره » .

وهكذا أضاف أسلوب الدعوة الى الاسلام ، الذى اقتضته ملابسة الوقت ، والمستوى البشرى ، الى الرق الموروث من عهود الجاهلية الأولى ، رقا جديدا ، ولم يكن من الممكن ، ولا من الحكمة ، ان يبطل التشريع نظام الرق ، بجرة قلم ، تمشيا مع الأصل المطلوب فى الدين ، وانما تقتضى حاجة الأفراد المسترقين ، ثم حاجة المجتمع ، الاجتماعية ، والاقتصادية ، بالابقاء على هذا النظام ، مع العمل المستمر على تطويره ، حتى يخرج كل مسترق ، من ربقة الرق ، الى باحة الحرية ، وفترة التطوير هى فترة انتقال ، يقوى أثناءها الرقيق على القيام على رجليه ليكسب قوته من الكدح المشروع ، وسط مجتمع تمرن أيضا ، أثناء فترة الانتقال ، على تنظيم نفسه بصورة لا تعتمد على استغلال الرقيق ، ذلك الاستغلال البشع الذى يهدر كرامتهم ، ويضطهد آدميتهم ، والذى كان حظهم التعس ايان الجاهلية .

وهكذا شرع الاسلام فى الرق ، فجعل للرقيق حقوقا وواجبات ، بعد أن كانت عليهم واجبات ، وليست لهم حقوق . ثم جعل الكفارات ، والقربات ، بعتق الرقاب المؤمنة ، السليمة ، النافعة . وأوجب مكاتبة العبد الصالح الذى يستطيع أن يفدى نفسه ، وأن يعيش عيشة المواطن الصالح . وهو فى أثناء ذلك

يدعو الى حسن معاملتهم فيقول المعصوم « خولكم أخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تطعمون ، واكسوهم مما تلبسون » .

الراسمالية ليست اصلا فى الاسلام

والأصل فى الاسلام شيوع المال بين عباد الله ، فيأخذ كل حاجته ، وهى زاد المسافر . وذلك أمر يلتمس تطبيقه فى حياة المسلم الوحيد فى تلك الفترة ، وهو النبى . ولكن الاسلام نزل على قوم لا قبل لهم به ، فلا يعرفون الا أن المال مالهم . وهم لم تكن عليهم حكومة تحمل على أموالهم هذا وظيفة يؤدونه ، وبذلك فقد شقت على نفوسهم الزكاة التى حملت على أموالهم ، وكانت ، لدى التحاق النبى بالرفيق الأعلى ، السبب المباشر فى الردة . وفى حقهم يقول تعالى « انما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وان تؤمنوا ، وتتقوا ، يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم * ان يسألكموها فيحفكم ، تبخلوا ، ويخرج أضغانكم * هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى ، وأنتم الفقراء ، وأن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » قوله « انما الحياة الدنيا لعب ، ولهو » يعنى فترة غفلة ، وجهالة ، لا تحتمل مسئولية الرجال . وقوله « وأن تؤمنوا » يعنى بالله ، ورسوله ، « وتتقوا » يعنى الكفر ، والشرك ، والكبائر ، « يؤتكم أجوركم »

يعني ثواب هذه الأعمال .. قوله « ولا يسألكم أموالكم » يعني كلها في الصدقة ، قوله «ان يسألكموها فيحفكم ، بخلوا » يعني أن يسألكم في الصدقة كل أموالكم تبخلوا عن طاعة هذا الأمر الشاق على نفوسكم ، وقوله « ويخرج أضغانكم » يعني يظهر ما تنطوي عليه صدوركم من حب المال ، وضعف اليقين ، وكمون الشرك . قوله « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » فيه اشارة لطيفة جدا الى المسلمين الذين يجيئون بعد المؤمنين ، ثم يكونون خيرا منهم . وهذا هو السبب الذي جعل تشريع الاسلام في المال دون حقيقة مراده ، وذلك تخفيفا على الناس ، وتدريجا لهم ، ودرء للشفقة عن نفوس أحضرت الشح . وهكذا جاءت الزكاة ذات المقادير وجعلت ركنا تعبديا في حقهم ، وذلك بمحض اللطف . يضاف الى الاعتبار الفردي اعتبار آخر ، هو أن شمس الاشتراكية لم تكن قد أشرقت على عالم يومئذ بعد .

عدم المساواة بين الرجال والنساء ليس اصلا في الاسلام

والأصل في الاسلام المساواة التامة بين الرجال والنساء ، ويلتمس ذلك في المسئولية الفردية أمام الله ، يوم الدين ، حين تنصب موازين الأعمال . قال تعالى في ذلك « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن تدع مثقلة الى حملها لايحمل منه شيء ، ولو كان ذا قربى ، انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ، وأقاموا الصلاة ، ومن

تركى فانما يتزكى لنفسه ، والى الله المصير» وقال تعالى «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم، ان الله سريع الحساب » وقال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة» ولكن الاسلام نزل ، حين نزل، على قوم يدفنون الضحية خوف العار الذى تجره عليهم اذا عجزوا عن حمايتها فسبيت ، او فرارا من مؤونتها اذا أجدبت الارض ، وضاق الرزق . قال تعالى عنهم « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » ومن هنا لم يكن المجتمع مستعدا ، ولا كانت المرأة مستعدة ليشرع الاسلام حقوقها فى مستوى ما يريد بها من الخير . وكان لابد من مرحلة انتقال أيضا يتطور فى أثنائها الرجال والنساء ، أفرادا ، ويتطور المجتمع أيضا . وهكذا جاء التشريع ليجعل المرأة على النصف من الرجل فى الميراث ، وعلى النصف منه فى الشهادة . وعلى المرأة الخضوع للرجل ، أبا وأخا وزوجا .. « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم » والحق ، ان فى هذا التشريع قفزة بالمرأة كبيرة ، بالمقارنة الى حظها سابقا ، ولكنه ، مع ذلك ، دون مراد الدين بها .

تعدد الزوجات ليس اصلا فى الاسلام

والاصل فى الاسلام ان المرأة كفاءة للرجل فى الزواج ،

فالرجل كله للمرأة كلها ، بلا مهر يدفعه ، ولا طلاق يقع بينهما .
ويلتمس منع التعدد في قوله تعالى « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » وفي قوله تعالى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . ويلتمس منع الطلاق في قوله المعصوم « أبغض الحلال الى الله الطلاق » والاشارة اللطيفة ان ما يبغضه الله لا بد مانعه ، حتى يصير المنع ممكنا ، وعمليا . فان الله بالغ أمره .

ويلتمس عدم ارادة الاسلام ، في أصوله ، المهر في كون المهر يمثل ثمن شراء المرأة ، حيث كانت انما تزوج من طريق من ثلاثة طرق .. اما ان تسبى ، أو تخطف ، أو تشترى ، فهو بذلك من مخلفات عهد هوانها على الناس . وما ينبغي له ان يدخل معها عهد كرامتها التي أعدها لها الاسلام ، حين تدخل أصوله دور التطبيق .

ولقد نزل الاسلام ، أول ما نزل ، على مجتمع لم تكن فيه للمرأة كرامة ، على نحو ما رأينا آنفا . وانما كانت تعامل معاملة تسلكها في عداد الرقيق .. ولم تكن العلاقة الزوجية تقوم على الانسانية واللطف مما ينبغي لها ، وانما كان الرجل يتزوج العشر زوجات ، والعشرين ، يستولدهن ، ويستغل عملهن .

وهناك ظاهرة أخرى وجدها الاسلام في ذلك المجتمع وهي ان عدد النساء كان يفوق عدد الرجال ، لما كانت تأكل الحروب

منهم . فشرع الإسلام في تقييد الإفراط في التعدد ، ولكنه لم ير أن يقفز بالناس إلى زواج الواحدة ، لأن ذلك لا يستقيم له في ذلك المجتمع الذي مرد على الإفراط في التعدد ، ولأنه رأى لأن يكون للمرأة نصف رجل ، يعفها ، ويحميها ، ويحدوها ، خير من أن تكون عانسا تتعرض لعاديات الأيام وهي مفتوحة الذيل . وكذلك قيد تعدد الزوجات بأربع ، فقال عز من قائل « فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى ، وثلاث ورباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وفي موضع آخر ترد إشارة غاية في اللطف تحدثنا عن صعوبة العدل بين النساء ، وذلك حين قال تعالى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ، ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، وإن تصلحوا ، وتتقوا ، فإن الله كان غفورا رحيما » نزل من مستوى العدل الذي هو مطلوب الدين ، والذي لم يكن وقتئذ ، بالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للفرد ، من رجل ، وامرأة ، قد حان يومئذ ، إلى مستوى العدل في الشريعة ، فأعقب قوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » بقوله « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» وبذلك أصبح معنى العدل هنا يقتصر على العدل المادي .. ولا يتناول ميل القلوب ، ولولا هذا التجاوز لما أصبح تشريع التعدد ممكنا ، وهو ، في واقع الأمر ، تشريع ضروري ، وبخاصة لتلك الفترة من حياة المجتمع المؤمن .

وطبيعة العدل هنا ألا يقيد الا بما تقيد به الحرية ، لأنه هنا حق ، يقابله واجب ، فمن لا يعرف الواجب يسلب الحق . وكانت المرأة متخلفة كثيرا ، ولم تكن فى مستوى المساواة مع الرجل ، وقد تضافرت عدة عوامل لوضعها ذلك الوضع المتخلف ، فجاء تقييد العدل فى حقها عدلا ، فيه لها خدمة ، ولمجتمعها خدمة . ويعتبر تشريع التعدد فترة انتقال الى عصر المساواة التامة بين الرجال والنساء ، ويومها يصبح العدل فى حقها يشمل العدل فى ميل القلوب ، وهو المعنى بقوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ويجىء يومئذ القيد من قبل قوله « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وهكذا يشرع فى تحريم التعدد ، الا لدى ضرورات بعينها تلجىء اليه ، وينص عليها فى القانون ، ويستأمر فيها الطرف المضرور بها .

الطلاق ليس أصلا فى الاسلام

والأصل فى الاسلام ديمومة العلاقة الزوجية بين الزوجين ، ذلك بأن زوجتك انما هى صنو نفسك . هى الشاق نفسك عنك خارجك . هى جماع آيات الآفاق لك فى مقابلة نفسك ، على نحو آية .. « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » ولكننا لا نملك النور الذى به نختار فى الزواج نصفنا الآخر ، اختيارا صحيحا .. مثلنا فى ذلك يقرب منه مثل الأعمى

لذى يجلس وبين يديه «حوابير» بعضها مربع ، وبعضها مستطيل ، وبعضها مثلث ، وبعضها مبروم ، وبعضها نصف دائرة ، وبعضها قطاعات دائرة على أحجام مختلفة ، وأمامه سطح عليه « أخرام » يناسب كل منها « خابورا » من «الخوابير» التي بين يديه ، فهو يحاول أن يضع « الخابور » المناسب في « الخرم » المناسب ، فيتم له ذلك حينا ، ويخيب أحيانا ، بل قد يعجز عجزا تاما عن التوفيق التام بين « الخابور » و« الخرم » . وفي الحق ، أن هذا المثل لا ينطبق تمام الانطباق على حالة اختيارنا الزوجة ، بل أن الأعمى ، في هذا المثل ، أقرب الى التوفيق ، والتسديد ، من أحدنا وهو يمارس تجربة الاختيار هذه . فاذا أخطأ أحدنا فوضع « خابورا » نصف دائري في «خرم » مربع ، مثلا ، فانه يحتاج الى فرصة ثانية ليعيد التجربة من جديد ، وانما شرع الطلاق ليعطينا هذه الفرصة الثانية .

عندما سقط آدم بالخطيئة ، وحواء ، وأخرجا من الجنة ، هبط كل منهما ، في مكان في الأرض ، منعزلا عن صاحبه ، وطفقا يبحثان . آدم عن حواء ، وحواء عن آدم ، وبعد لأى ، وجد آدم حواء ، ولم يجدها . ووجدت حواء آدم ، ولم تجده . ومنذ ذلك اليوم والى يومنا هذا ، يبحث كل آدم عن حوائه ، وتبحث كل حواء عن آدمها . وأبواب الضلال واسعة ، وأبواب الرشاد ضيقة ، ولكنا ، ولله الحمد ، في كل يوم نستقبل مزيدا من النور ،

به تضيق دائرة الضلال ، وتتداعى ذرة الرشاد . ونور الايمان لا يكفى ـ وهو لم يكف المؤمنين من قبل ـ لتمام التسديد فى الاختيار . فاذا أتم الله نوره ، وأشرقت شمس الاسلام ، فيومئذ لا يقع خطأ فى الاختيار ، مما يحتاج الى التصحيح بتشريع الطلاق ، فالنظائر قد التحقت بالنظائر .. والشكول ضمت الى الشكول .. « قد علم كل أناس مشربهم » .. فالزواج فى الاسلام علاقة أزلية سابقة للزواج فى الشريعة ، وما الزواج فى الشريعة الا محاولة للوصول لتلك العلاقة التى كانت بين آدم وحواء ، حين أخذت حواء من آدم « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به ، والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » وما الطلاق الا فرصة الخطأ التى أتيحت للشريكين ليتعلما ، فيستغنيا عن الخطأ ، فتسقط فى حقهما شريعة الطلاق بعدم الحاجة اليها .

الحجاب ليس اصلا فى الاسلام

والأصل فى الاسلام السفور .. لأن مراد الاسلام العفة .. وهو يريدها عفة تقوم فى صدور النساء والرجال ، لا عفة مضروبة بالباب المقفول ، والثوب المسدول . ولكن ليس الى هذه العفة الغالية من سبيل الا عن طريق التربية والتقويم . وهذه تحتاج الى فترة انتقال لا تتحقق أثناءها العفة الا عن طريق الحجاب ،

وكذلك شرع الحجاب ، فكان الأصل ما كان عليه آدم وحواء
قبل أن يزلا : « ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة ، فكلا من
حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين *
فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ،
وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ألا أن تكونا ملكين ، أو تكونا
من الخالدين * وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين * فدلاهما
بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان
عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما
الشجرة ، وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين ؟ * قالا ربنا
ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا ، وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين
* قال اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ،
ومتاع الى حين * قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها
تخرجون * يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري
سوءاتكم ، وريشا ، ولباس التقوى ، ذلك خير ، ذلك من
آيات الله ، لعلهم يذكرون * يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان
كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ، ليريهما
سوآتهما ، انه يراكم ، هو وقبيله ، من حيث لا ترونهم ،
انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » قوله «ليبدي لهما»
يعني ليظهر لهما .. قوله « ما ووري عنهما » يعني ما غطي عنهما
بلباس النور .. « من سوآتهما » من عوراتهما .. قوله « فدلاهما

بغرور » نصحهما بباطل ، وكذب ، حتى تورطا في الخطيئة، فلما سقطا « بدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » فأخذا يستران عوراتهما بورق التين ، ومن يومئذ بدأ الحجاب . فهو نتيجة الخطيئة ، وسيلازمها حتى يزول بزوالها ، ان شاء الله . وفي ذلك قوله تعالى « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم » ، وهو يعني قد خلقنا لكم ، وفرضنا عليكم لبس ثياب القطن والصوف وغيرهما مما يواري عوراتكم .. وقوله « ولباس التقوى » يعني لباس التوحيد ، والعفة، والعصمة المودعة في قلوبكم ، قوله « ذلك » يعني لباس العفة « خير » من لباس القطن .. « ذلك » يعني لباس القطن .. « من آيات الله » من حكمته في تشريعه .. وكل المعنى في قوله تعالى « لعلهم يذكرون » ويعني لعل الناس يذكرون حالة الطهر ، والبراءة والعفة ، التي كان عليها أمرهم قبل الخطيئة ، فتكون همهم الرجعى . والآية الأخيرة واضحة الدلالة على ما ذهبنا اليه في أمر الحجاب .. والسفور في الاسلام اصل لأنه حرية .. وقد اسلفنا القول بأنه ، في الاسلام ، الأصل في كل انسان أنه حر ، الى ان يسيء التصرف في الحرية ، فتصادر حريته بقانون دستوري .. وقد سلفت الاشارة الى القانون الدستوري .. اقرأ في حكمة الحجاب قوله تعالى « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت ، حتى

يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا ، » اذا توفرت الأدلة على اعوجاج سلوكها بما لا يرقى الى الحد تصادر حريتها بحرمانها من حقها فى حرية السفور ، وتحبس فى المنزل « حتى يتوفاهن الموت » ان لم يبد من احداهن انها قد اقتنعت بالعقوبة ، وانها استقامت ، مما يجعلها مرجوة لحسن التصرف فى السفور .

فالحجاب عقوبة حكيمة على سوء التصرف فى حرية السفور . هذا فى الأصل الأسلامى . ولكنه ، فى التشريع الحاضر ، يمثل مصادرة مستمرة لحرية السفور ، لأن الشارع أراد به الى سد الذريعة ، حماية للقصر من مسئولية باهظة ، وثقيلة ، لا ينهض بها المؤمنون ، وانما ينهض بها المسلمون ، وما لهؤلاء شرع .

المجتمع المنعزل رجاله عن نسائه ليس اصلا فى الاسلام

وما يقال عن السفور يقال عن الاختلاط ، فان الأصل فى الاسلام المجتمع المختلط ، بين الرجال والنساء ، ثم هو مجتمع سليم من عيوب السلوك التى اتسمت بها المجتمعات المختلطة الحاضرة .

هذه جميعها مجرد أمثلة سيقت على سبيل اظهار الفرق بين الأصل والفرع ، وللتدليل على أن الرسالة الأولى ، انما هى تنزل عن الرسالة الثانية لتناسب الوقت ، ولتستوعب حاجة مجتمعه ، ولتتلطف بالضعف البشرى يومئذ . وفيها فى ذلك غناء .

الباب السادس

الرسالة الثانية

الرسالة الثانية هي الإسلام، وقد أجملها المعصوم إجمالا، ولم يقع في حقها التفصيل إلا في التشاريع المتداخلة بين الرسالة الأولى وبينها، كتشاريع العبادات، وكتشاريع الحدود، قال تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا» هذا اليوم يوم عرفة، من حجة الوداع، في السنة الثامنة من الهجرة، وقد كان يوم جمعة. وهذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن.. وهي قمة رسالات السماء.

وهو إنما رضي لنا الإسلام دينا لنرضاه، فإن أمرا لا يبدأ من طرفه هو، لا يبدأ من طرفنا نحن.. قال تعالى «ثم تاب عليهم ليتوبوا».

وقد ظن كثير من الناس أن قوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم» تعني أن الإسلام كمل عند الناس، وانتهى إلى قمة كماله يومئذ. وهؤلاء، حين يقرأون قوله تعالى «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم» يعتقدون أن تبيين القرآن قد تم، وليس هناك أمر هو أبعد من الصواب من هذا الرأي.. فالقرآن لم يبيّن منه بالتشريع، وبالتفسير، إلا الطرف الذي يناسب الوقت الذي جرى فيه التبيين، ويناسب طاقة الناس.. والقرآن لا يمكن أن يتم تبيينه. والإسلام، كذلك، لا

يمكن أن يكمل . فالسير في مضماره سير سرمدي «ان الدين عند الله الاسلام» و «عند» هنا ، ليست ظرف زمان ، ولا هي ظرف مكان ، وانما هي خارج الزمان ، والمكان ..
فالسير بالقرآن في مضمار الاسلام سير الى الله في اطلاقه..
وهو بذلك لم يتم تبيينه ، ولن يتم ، وانما تم انزاله بين دفتي المصحف .. تم انزاله ، ولم يتم تبيينه ..

ومن ههنا يفهم الفرق بين « أنزلنا » و « نزل » من الآية « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » فان الفهم العام ، عند العلماء ، انهما مترادفتان ، وما هما بذلك .. و « ما » في جملة « ما نزل اليهم » لا تعود الى الذكر ، وانما تعود الى جزء من الذكر ، ينصب عليه الأمر بالتبيين ، وهو ما يخص الرسالة الأولى .. الا ما يكون متداخلا بينها وبين الرسالة الثانية .

ويحسن أن نذكر هنا أن القرآن قد نزل مثاني .. وفي ذلك يقول تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ، مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » ومعنى « متشابها » قائمة قرينة الشبه بين أسفله وأعلاه ، وبين وجهه وقفاه ، وبين ظاهره وباطنه .
ومعنى « مثاني » انه ذو معنيين ، معنيين . معنى بعيد عند الرب ، ومعنى قريب تنزل للعبد ... والقرآن كله مثاني .. كل آية

منه ، وكل كلمة فيه ، بل وكل حرف من كل كلمة .. والسر في ذلك أنه حديث صادر من الرب مخاطب به العبد .. والشبه الذي فيه هو الشبه الذي قام بين الرب والعبد ، وعبر عنه المعصوم بقوله « أن الله خلق آدم على صورته » وعبر عنه تبارك وتعالى « يأيها الناس أتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » وتلك النفس الواحدة انما هي نفسه تبارك وتعالى ..

فكلمة الاسلام ، مثلا ، لها معنى قريب هو الذي عبر عنه القرآن بقوله تعالى « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم » .. وهذا هو الذي أسميناه الاسلام الأول، وقلنا أنه لا عبرة به عند الله . وللاسلام معنى بعيد ، وهو مركوز عند الله ، حيث لا حيث .. وهو بمعناه البعيد قد أشار اليه سبحانه وتعالى حين قال « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، و لا تموتن الا وانتم مسلمون » . ومعلوم أنه لا يتقي الله حق تقاته الا الله ، وهو، من ثم ، نهج معراج الى الله ذي المعارج ، في مقام عزه . بالعبودية، والتذلل ، والاستسلام .. والعبودية لا تتناهى .. فهي كالربوبية تماما .. والعبودية المطلقة لله تقتضي العلم المطلق بالله . وهذا لا يكون الا لله عز وجل « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله » فالغيب هنا يعني الله .. فكأنه قال ، لا يعلم الله الا الله، ولقد تحدثنا في رسالة الصلاة

كيف أن العبودية هي الحرية فلا سبيل إلى إعادتها .. فليرجع إليه .

والإسلام لما كان منهج معراج إلى مقام العبودية بفضل القرآن . وهو كتابه المسلك في مراقيه . وهذا التسليك هو مما من أجله أنزل القرآن ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر » . وهو إنما يذكرنا بالعبودية التي أقررنا على أنفسنا بها ، ثم نسيناها ، وذلك حيث قال تعالى عنا « وإذ أخذ ربك من بني آدم ، من ظهورهم ، ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا بلى ! شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا ، إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ، ولعلهم يرجعون » لعلهم يرجعون إلى الله بالعبودية والاستسلام ... بالإسلام .

ولما كان القرآن هو منهاج السلوك إلى الله ، « قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، والقرآن هو هذا الهدى ، فقد أصبح أوله عند الله ، وآخره عندنا . فإن نحن أحسنا السلوك في مدارجه استرجعنا الفردوس الذي فقدناه بخطيئة آدم ، وارتقينا المراقي في الإطلاق .. قال تعالى عن القرآن « ألم *

ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين» وقال عن المتقين المهتدين بالقرآن « ان المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق ، عند مليك مقتدر » وهذه درجات : أولها الجنات ، ثم النهر ، ثم مقعد الصدق ثم عند مليك مقتدر ، وذلك « عند لا عند » و «حيث لا حيث » . وهذه الدرجات تتفاوت من الجنات الحسية ، وهى الفردوس المفقود بالخطيئة، الى المطلق فى اطلاقه ، والى كل أولئك يهدى القرآن . فهو لا ينفد . « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا » ومن أجل هذا فانه باطل ، زعم من زعم ان القرآن يمكن أن يستقصى تبيينه .. ذلك بأن القرآن هو ذات الله .. وهذه الذات تنزلت ، بمحض الفضل ، الى مدارك العباد ليعرفوها . فكان القرآن فى تنزلاته المختلفة الذكر ، والقرآن ، والفرقان . وفى منزلة الفرقان هذه انصب فى قوالب التعبير العربيه ، واستعملت هذه القوالب ابلغ استعمال لتشير الى منزلتى القرآن ، والذكر . والقرآن انما انصب فى قوالب التعبير العربية لنتمكن نحن من الفهم عن الله .. قال تعالى فى ذلك : « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ولقد ورطت هذه الآية ، واخواتها كثيرا من علماء المسلمين فى الخطأ ، فظنوا ان القرآن عربى بمعنى انه يمكن ان يستقصى فهمه من اللغة العربية، ومن معرفة أساليبها ، وما هو بذلك ، ولقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن السور المفتتحة

بأحرف التهجي ، فليراجع هناك .

ولما كان الاسلام بهذا السموق ، فانه لم يتفق لأمة من الامم الى اليوم . والامة المسلمة لم تظهر بعد . وهي مرجوة الظهور في مقبل أيام البشرية . وسيكون يوم ظهورها يوم الحج الأكبر ، وهو اليوم الذي يتم فيه تحقيق الخطاب الرحماني بقوله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا » .

ولقد كان محمد يومئذ طليعة المسلمين المبلغ ، وهو كأنما جاء لأمته ، امة المؤمنين ، من المستقبل ، فهو لم يكن منهم ، فقد كان المسلم الوحيد بينهم « قل ان صلاتي ، ونسكي ، ومحياي ، ومماتي ، لله رب العالمين * لا شريك له ، وبذلك امرت ، وانا اول المسلمين » . ولقد كان ابوبكر ، وهو ثاني اثنين ، طليعة المؤمنين .. وكان بينه وبين النبي أمد بعيد . والى المسلمين ، الذين يجيئون في مقبل أيام البشرية ، اشار حديث المعصوم ، حين قال . « واشوقاه لأخواني الذين لما يأتوا بعد ! » فقال ابوبكر « أولسنا اخوانك يارسول الله ؟ » قال « بل انتم اصحابي ! » ثم قال ثانية : « واشوقاه لأخواني الذين لما يأتوا بعد ! » فقال أبو بكر : «أولسنا اخوانك يارسول الله ؟ » قال «بل انتم اصحابي ! » ثم قال ثالثة : « واشوقاه لأخواني

الذين لما يأتوا بعد ! » قالوا « من اخوانك يارسول الله ؟ » قال « قوم يجيئون في آخر الزمان ، للعامل منهم أجر سبعين منكم » قالوا « منا أم منهم ؟ » قال « بل منكم » قالوا « لماذا؟» قال « لانكم تجدون على الخير أعوانا ولا يجدون على الخير أعوانا » .

المسلمون

المسلمون كافة لم يجيئوا بعد ، ولقد تنبأ المعصوم بمجيئهم في آخر الزمان ، وذلك حين يبلغ الكتاب أجله ، ويجيء موعود الله تعالى في قوله « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » ويومئذ يدخل الناس في الدين كافة ، ولا يجدون عن ذلك منصرفا ، لأن جميع المشاكل لا تجد حلها الا فيه . وما نرى الا ان الأرض اخذت تتهيأ لظهور شريعة المسلمين التي بها تكون المدنية الجديدة ، وما بدون المدنية الجديدة للناس خلاص من افلاس النظم الاجتماعية المعاصرة .. وذلك أمر سلفت الاشارة اليه في صدر هذه الرسالة ، حيث قلنا ان الانسانية كلها ، في هذه الآونة ، في التيه ، وقد ضل سعي المدنية الغربية ، واستعلن افلاسها ، وأصبحت قضايا الديمقراطية ، والاشتراكية ، والحرية الفردية ، تتطلب الحلول ، وتلح في الطلب ، ولا يجيء الحل الا من تلقيح المدنية الغربية . أو قل ، اذا أردت الدقة ، الحضارة الغربية

— بروح جديد ، هو روح الاسلام ، وانما رشح الاسلام بهذا المقام مقدرته على حل الاشكال القائم بين الفرد والجماعة ، وبين الفرد والكون . وهو أمر أسلفنا فى تفصيله القول .

وما ينبغى أن يلتبس اسم المسلمين المعنى هنا ، مع الاسم التقليدى الذى تتسمى به الأمة الحاضرة . فاننا قد أسلفنا القول بأنها لم تتسم بهذا الاسم الا من الاسلام الأول ، والا فهى الأمة المؤمنة . فما من أمة من الأمم السوالف تستحق هذا الاسم . وكل ما ذكر عن الأمم من اسلام فانما هو الاسلام الأول . الا ما كان من أمر طلائع البشرية ، فانه الاسلام الأخير ، أو قل هو درجة فى الاسلام الأخير ، فما للاسلام الأخير غاية فتبلغ . وهم بذلك طلائع الأمة المسلمة التى لم تجىء الى اليوم .. قال تعالى فى ذلك .. « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت ، واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، انك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ، ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين * اذ قال له ربه اسلم ، قال أسلمت لرب

العالمين * ووصى بها ابراهيم بنيه ، ويعقوب ، يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد الهك واله آبائك ، ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، الها واحدا ، ونحن له مسلمون » .. قوله « ربنا واجعلنا مسلمين لك » يعنى الاسلام الأخير ، وقد كانا مسلمين من ذلك الطراز . وأما قوله « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » فانه يعنى ، فى المدى القريب ، أمة مسلمة على مستوى الاسلام الأول ، ثم يتداعى بها الترقى ، والتطور حتى تبلغ ، فى المدى البعيد ، مراقى الاسلام الأخير . وقد استجيب لهما فى ذلك . قوله « ووصى بها ابراهيم بنيه » يعنى وصاهم بالكلمة وهى « لا اله الا الله » وكذلك وصاهم يعقوب . « يا بنى ! ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن الا وانتم مسلمون » يعنى فلا تموتن الا وانتم متمسكون بالملة ، وبالكلمة ، « لا اله الا الله » .. وقوله « قالوا نعبد الهك ، واله آبائك ، ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، الها واحدا ، ونحن له مسلمون » يعنى أيضا الاسلام الأول .

وقال تعالى فى ذلك « واذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون . » فاسلامهم هنا مطابق للايمان ، وهو ما وقع به الأذن بالوحى .

بأن الله انما أوحى اليهم ان يؤمنوا .. فلما آمنوا وقالوا « آمنا » وقع لهم ان هذا الايمان اسلام وكذلك قالوا « واشهد بأنا مسلمون » والعارف يسمع اجابه القدس اياهم فى محوى . « قل لم تسلموا ولكن قولوا آمنا » . لم يسلموا الاسلام الأخير .. أعنى درجة البدايـة منه .. وانما اسلموا الاسلام الأول .

ونحن انما جزمنا بأن اسلام كل هؤلاء هو الاسلام الأول لأن أدنى مراتب الأسلام الأخير الخروج عن الشريعة الجماعية والدخول فى الشريعة الفردية ، وذلك بأتقان العمل بالشريعة الجماعيه حتى يحسن الفرد التصرف فى الحرية الفردية المطلقة . فالاسلام الأخير مرتبة فرديات .. والفردية لا تتحقق لأحد وهو منقسم على نفسه ، فلابد له من اعادة الوحدة الى بنيته ، فلا يكون العمل الواعى فى تعارض وتضاد مع العقل الباطن ، وبنفى التعارض بينهما تتم سلامة القلب ، وصفاء الفكر ، وجمال الجسم ، فتتحقق حياة الفكر ، وحياة الشعور .. وهذه هى الحياة العليا .. « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » فالحيوان هنا ضد الموتان ، وهى الحياة الكاملة ، غير المؤوفة بالنقص ، ولا بالمرض ، ولا بالموت .

واعادة الوحدة الى البنية تعنى أن الانسان يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول .. وهذا هو مطلوب

الاسلام ، وذلك حيث يقـول « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ * كبر مقتا عندالله أن تقولوا ما لا تفعلون . »

المجتمـع الصـالح

ولا يبلغ أحد هذا المبلـغ الرفيع من الحيـاة الا بوسيلتين اثنتين : أولاهما وسيلة المجتمع الصـالح ، وثانيتهما المنهـاج التربوى العلمى الذى يواصـل به مجهوده الفردى ليتم له تحرير مواهبه الطبيعيـة من الخـوف الموروث .

والمجتمـع الصـالح هو المجتمع الذى يقـوم على ثلاث مساويات : المساواة الاقتصادية، وتسمى فى المجتمـع الحديث الاشتراكيـة ، وتعنى أن يكون الناس شركاء فى خيرات الأرض . والمساواة السياسية ، وتسمى فى المجتمع الحديث الديمقراطية، وتعني أن يكون النـاس شركاء فى تولى السلطة التى تقوم على تنفيذ مطالب حيـاتهم اليومية . ثم المساواة الاجتماعية ، وهذه ، الى حد ما ، نتيجـة للمساويين السابقتين ، ومظهرها الحلى محو الطبقات ، واسقاط الفـوارق التى تقـوم على اللـون ، أو العقيدة ، أو العنصر ، أو الجنس، من رجل ، وامرأة . فانه يجب الا يكون هناك تمييز بين الأفراد يقوم على أى اعتبـار من هذه الاعتبارات . فالناس لا يتفاضلون الا بالعقل ، والخلق . ومحك ذلك العدل فى السيرة بين الناس، والنصح ، والاخلاص للمواطنين،

في السر والعلن ، وروح الخدمة العامة ، في كل وقت ، وبكل سبيل .

والمساواة الاجتماعية تستهدف محو الطبقات ، ومحو الفوارق بين المدن والأرياف ، وذلك بإتاحة الفرص المتساوية للتثقيف ، والتمدين ، حتى يكون التزاوج بين جميع الأفراد في المجتمع أمرا عاديا .. وهذا هو المحك الصادق في مبلغ المساواة الاجتماعية ..

والمجتمع الصالح ، بعد أن يقوم على هذه المساويات الثلاث ، التي يتكفل القانون بتنظيمها ، ورعايتها ، يقوم أيضا على رأي عام سمح لا يضيق بأنماط السلوك المختلفة ، لدى النماذج البشرية المتباينة ، ما دام هذا السلوك لا يعود إلا بالخير والبركة على المجتمع .

وللرأي العام أحكام تصدر من وراء حكم القانون ، وهي غير ملزمة لأحد ، ولا معضدة بسلطة ، ولكنها قد تكون ، مع ذلك ، أكثر فعالية من القانون ، في ردع الشواذ والمارقين . ويمكن للرأي العام بالطبع ، أن يصدر حكمه على أي سلوك لا يوافق عليه ، ولكن يجب تجنب العنف في أحداث أي تغيير في ذلك ، فإن العنف لا يبعث إلا إحدى خصلتين : أما العنف ممن يطيقون المقاومة ، أو النفاق من العاجزين عنها ، وليس في أيهما خير .. ثم ، لدى الضرورة ، يمكن لأحكام الرأي

العام ، والعرف الجماعي ، ان تدخل حرم القانون ، وذلك باقتراح التشريعات التي تسد النقص الذي يبدأ لمن شاء ، وبالطبع لن تكون التشريعات غير دستورية ، ودستورية القانون عندنا معروفة ..

المساواة الاقتصادية : الاشتراكية

ليس هذا المقام مقام التفصيل في امر الاشتراكية ، فان لها سفرا سيخرج للناس قريبا ، ان شاء الله ، باسم « الاسلام ديمقراطي اشتراكي ».

والاشتراكية تعني ان يكون الناس شركاء في خيرات الأرض ، وهي قد بدأت منذ أن بدأ المجتمع ، فانها صنو الرأسمالية. وكانت الرأسمالية ، ممثلة في الملكية ، هي النظام الذي نشأ عليه المجتمع ، ولقد تطورت الرأسمالية الى أن وصلت معناها العلمي الحاضر ، وكذلك تطورت الاشتراكية ، وانما كان تطورها أبطأ من تطور الرأسمالية لان الرأسمالية تعتبر مقدمة طبيعية لها ، و لا يمكن للاشتراكية أن تسبق الرأسمالية . ثم ان الاشتراكية نتيجة حكم القانون الذي يرعى حق الضعيف ، في حين ان الرأسمالية نتيجة قانون الغابة الذي يعطي الحق للاقوياء ، وينقاصاه لهم ، وبطبيعة النشأة ، فان قانون الغابة مرحلة سابقة لمرحلة قانون العدل ، والرحمة ..

ولقد ظهرت الاشتراكية في جرثومتها البدائية في صورة الحسد ، أو الغبطة التي تعتمل في صدر « الماعدهم ضد

المعدم » • فقد كان محسودا الذى يوفق الى سلاح حجرى ممتاز بالحدة ، والقوة ، والمتانة والذى يوفق الى كهف حصين ، وفسيح ، والذى يوفق الى زوجة جميلة ، وصحة ، ومطيعة ، وقوية، وهكذا • ولقد دفع هذا الحسد الى الصراع التاريخى بين «المعتدهم والمعدم» • ولا يزال هذا الصراع محتدما ، ولن يهلك ، حتى تتم المساواة المطلقة بين الناس فى خيرات الارض ••

وقبل أن تظهر الاشتراكية العلمية نتيجة لهذا الصراع الطويل المرير كانت الاشتراكية فى مرحلتها البدائية ، وهذه تعنى المشاركة فى الخيرات التى لا تضيق بأحد ، ولا يقع عليها الحوز • ولقد عبر المعصوم عن هذه حين قال « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » • وفى هذا الحديث اشارة رهيبة الى وجوب الاشتراكية بين الناس حين يمكن أن تفيض الخيرات باستغلال الموارد الطبيعية والصناعية •

وانما دخلت الاشتراكية فى الطور العلمى مؤخرا ، وبرزت، واستحوذت على اهتمام الناس ، واصبحت فى أيامنا هذه يدعيها الذين يصونها ، والذين لا يصونها ، وذلك لفرط تعلق الشعوب بها •

ولقد بدأ فى أوائل القرن التاسع عشر استخدام اصطلاحى «الاشتراكية » و « الشيوعية » فى كل ما له صلة بفكرة الملكية العامة للعقار •• وقد استخدم اصطلاح « الاشتراكية » فى

انجلترا فى حوالى عام ١٨٢٠ ،ولأول مــرة ، بواسطه روبرت أوين ، وهو صانع نزى ، ويعتبر مؤســس الاشتراكية الحديثة . ولقد كان يؤمن بامكان تحقيق التحسين الاجتماعى عن طريــق الوســائل الاختيــاريــة ،والدستورية الوئيدة، والمستمرة، التى تجنب الشعوب الشرور التى تسير فى ركاب التغييرات الثورية العنيفة ، وبخاصة السيئة الاعداد منهـا .

وكلمه « الشيوعية» مشتقة من كلمة لاتينية معناها « عام » أو « مملوك للجميع » . ولقــد استخدمت فى أول الأمر حوالى عام ١٨٣٥ بواسطة الجمعيــات الثورية السريه الفرنسيــة التى كانــت ترمى الى قلب الطبقــة الوسطى بالعنف ، ثم السيطــرة على فرنسا ، بهدف انشاء اقتصاد يكون فيه جميع المتاع المنتــج مملوكا للشعب ، وتكون فيــه طبقة العمال هى العنصر الحاكم.

ودخل كارل مــاركس فى الصورة ، وأخذ يدرس ويرصد ويطور أفكــاره على أســاس النظــريــات ، والتطــبيقــات الاشتراكية ، والشيوعية المختلفة، ولقد فضل اصطلاح «الشيوعية»، فاختاره ليصف به أفكاره ، لأن هذا الاصطلاح كان مرتبطا بفكرة تسيير المجتمع بالعنف . وكان ماركس يقيم مذهبه على أربعــة مبــادىء : ــ

١ ــ مجرى التاريخ تتحكم فيه القوى الاقتصــادية .

٢ ــ التاريخ ما هو الا سجل لحرب الطبقــات .

٣ ـ الحكومة ما هي الأداة تستخدمها طبقة في اضطهاد طبقة أخرى .

٤ ـ العنف والقوة هما الوسيلتان الوحيدتان لتحقيق أي تغير أساسي في المجتمع .

وعلى هذه المبادىء ، ووفاء لها ، ظل ماركس ، منذ كتاباته الأولى ، يهاجم بالحاح التجارب الاشتراكية ، كالتي كان يرعاها روبرت أوين ، ويصفها بأساطير علمية ، وغير واقعية ، لأن التاريخ ، كما هو واضح في رأيه ، قد سار على قوانين علمية قاسية ، وأن تغييرا اجتماعيا جوهريا بغير طريق القوة والعنف لا يمكن أن يتم .. ولهذا فقد سخر باعتقاد أوين وغيره من الاشتراكيين بامكان اصلاح اجتماعي عن طريق الزمالة ، والتعاون ، والتطور الوئيد . وكان يسمي علمهم هذا الاشتراكية « المثلى » ويهتم كثيرا بالتفريق بينها وبين مذهبه هو ، ويسميه الاشتراكيه « العلمية » أو « الشيوعية » . ونحن عندما نتحدث عن الاشتراكية العلمية ، أو عن الشيوعية ، فيما ندعو اليه ، لا نريد مذهب ماركس هذا ، بل انا لنعلم ان اشتراكية ماركس ليست علمية ، وانما هي متورطة في خطأ أساسي ، ليس هذا المقام مقام الخوض فيه ، وانما سنخوض في تبيانه عند الكتابه عن « الاسلام ديمقراطي اشتراكي » الذي سيصدر عما قريب ان شاء الله .

فالاشتراكية العلمية بعد، تقوم على دعامتين اثنتين، وفي آن واحد : أولاهما زيادة الانتاج ، من مصادر الانتاج ، وهي المعدن ، والزراعة ، والصناعة ، والحيوان . وذلك باستخدام الآلة ، والعلم ، وبتجويد الخبرة الادارية ، والفنية . وثانيتهما عدالة التوزيع ، وهي تعني ، في مرحلة الاشتراكية ، أن يكون هناك حد أعلى لدخول الأفراد ، وحد أدنى . على أن يكون الحد الأدنى مكفولا لجميع المواطنين ، بما في ذلك الأطفال ، والعجائز ، والعاجزين عن الانتاج ، وعلى أن يكون كافيا ليعيش المواطن في مستواه معيشة تحفظ عليه كرامته البشرية .. وأما الحد الأعلى للدخول فيشترط فيه ألا يكون أكبر من الحد الأدنى بأضعاف كثيرة حتى لا يخلق طبقة عليا تستنكف أن تتزاوج مع الطبقة ذات الدخول الدنيا.. ومن أجل زيادة الانتاج وجب تحريم ملكية مصادر الانتاج ، ووسائل الانتاج ، على الفرد الواحد ، أو الأفراد القلائل في صورة شركة ، سواء كانت شركة انتاج ، أو شركة توزيع .. ولا يحق للمواطن أن يملك ، ملكا فرديا ، الا المنزل ، والحديقة حوله ، والأثاثات داخله ، والسيارة ، وما الى ذلك مما لا يتعدى الى استخدام مواطن استخداما يستغل فيه عرقه لزيادة دخل مواطن آخر . والملكية الفردية ، حتى في هذه الحدود الضيقة ، يجب ألا تكون ملكية عين للأشياء المملوكة ، وانما هي ملكية ارتفاق بها ، وتظل عينها مملوكة لله ثم للجماعة بأسرها .

ثم انه كلما زاد الاتساع من مصادر الانتاج اتجهت عدالة التوزيع الى الاتقان ، وتقريب الفوارق ، وذلك برفع الحد الأدنى ، وبرفع الحد الأعلى على السواء . ولكن رفع الحد الأدنى يكون بنسب أكبر من رفع الحد الأعلى ، وذلك بغية تحقيق المساواة المطلقة . وعند تحقق المساواة المطلقة بفضل الله ، ثم بفضل وفرة الانتاج ، تتحقق الشيوعية ، وهى تعنى شيوع خيرات الأرض بين الناس .. فالشيوعية انما تختلف عن الاشتراكية اختلاف مقدار .. فكأن الاشتراكية انما هى طور مرحلى نحو الشيوعية .

ولقد عاش المعصوم الشيوعية فى قمتها حين كانت شريعته فى مستوى آية الزكاة الكبرى « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » ولقد فسر العفو بما يزيد عن الحاجة الحاضرة . وحديثه عن الأشعريين فى مستوى الشيوعية ، وذلك حين قال « كان الأشعريون اذا أملقوا ، أو كانوا على سفر ، فرشوا ثوبا ، فوضعوا عليه ما عندهم من زاد ، فاقتسموه بالسوية ، أولئك قوم أنا منهم وهم منى » وهذا هو فهم الأمة المسلمة التى لما تجىء بعد .. ولقد أدرك هذا الفهم أصحابنا الصوفية وذلك حين تصوروا جسم الأرض ، وما عليها من خيرات ، كمائدة أنزلها الله على عباده ، وأمرهم أن يرتفقوا بها بزاد المسافر ، ويواصلوا سيرهم اليه .. فهذه الأرض ، مثلها

عندهم مثل المائدة ، وضعت للآكلين ، وعليها اللحم ، والخبز ، والخضار ، والحلوى ، وجلس اليها عشرة رجال ، فان كل ما عليها هو على الشيوع بينهم ، ولا تقع لك الملكية الفردية لقطعة لحم منها ، الا حين تحتويها أصابعك ، وتبدأ رحلتها الى فمك .

وحين يحدثنا القرآن عن الجنة « وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » انما يعني أيضا النموذج المصغر للجنة الكبرى ، الذي يتحقق في هذه الأرض التي نعيش عليها اليوم وذلك حين « تملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا » على حد التعبير النبوي الكريم . وهو ما داعب خيال ماركس وضل الطريق اليه كل الضلال ، ولن يبلغه الا المسلمون الذين لما يأتوا بعد .. وحين يأتون سيتحقق في الأرض طرف من قوله تعالى « ان المتقين في جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا ما في صدورهم من غل ، اخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » وهذا الطرف هو الشيوعية التي يحققها الاسلام بمجيء أمة المسلمين ، ويومئذ تشرق الأرض بنور ربها ، وتتم نعمة الله على سكانها ، ويحلق في ربوعها السلام ، وتنتشر المحبة .

المساواة السياسية : الديمقراطية

ولن نتحدث عن الديمقراطية بتطويل هنا ، فان موعدنا بذلك السفر الذي سيخرج باسم « الاسلام ديمقراطي اشتراكي »

فكما ان الاشتراكية هي ثمرة الصراع الطويل بين « المعدمين والما عدمين » في الصعيد المادى، فان الديمقراطية هي ايضا نتيجة الصراع بين « المعدمين والما عدمين » في الصعيد السياسي ، وهي تعني أن يكون الناس شركاء في السلطة ، كما هم شركاء في خيرات الأرض . والديمقراطية صنو الاشتراكية.. وهما معا يمثلان جناحي المجتمع .. فكما أن الطائر لا يستقل في الهواء على جناح واحد، فكذلك المجتمع، لا يستقل بغير جناحين من ديمقراطية واشتراكية . ولقد ظهرت الديمقراطية قبل الاشتراكية، ذلك لأن الاشتراكية تحتاج الى وعي جماعي أكثر مما تحتاجه الديمقراطية التي قد تقوم في بدايتها على قلة من المثقفين .. ثم ان الاشتراكية محتاج ، كمقدمة لها ، الى الرأسمالية النامية العينية .. وهي أيضا وليدة الآلة ، فلم يكن من الممكن أن تتقدمها .. ولم تجيء الآلة الا مؤخرا .. هذا الحديث يعني الاشتراكية العلمية .. أما الاشتراكية الساذجة ، البدائية ، فان نشأتها بعيدة في التاريخ ..

ولدت الديمقراطية في بلاد الاغريق ، وفي أثينا بالذات . وقد كانت أثينا أرقى مدن الاغريق عامة . وكانت كل مدينة من تلك المدن حكومة قائمة بذاتها .. ولما كانت الدول الاغريقية التي تمثلها المدن صغيرة فقد كان من السهل على الشعب أن يمارس الحكم مباشرة عن طريق اجتماع أفراده ، وكانت ديمقراطيتهم بذلك الديمقراطية المباشرة التي لا تحتاج الى مجلس

نيابي ، ولا الى مجلس بعيدى ،على النحو الذى عرف مؤخرا ، وهى لم تكن تقوم على موظفين دائمين ، وانما كان الموظفون ينتخبون كل عام .. وكثيرا ما كان الانتخاب يجرى بالاقتراع ، وكان أهل أثينا يعتقدون أن الاشتراك فى مناقشة ، وسياسة الشئون العامة ، حق لكل مواطن، وواجب عليه ، (لم يكونوا يميزون النساء والعبيد من المواطنين) ، وكان بركليس أعظم الخطباء المتكلمين باسم الديمقراطية الأثينية ، وفى خطابه المعروف باسم خطبة الجنازة ، التى ألقاها فى مناسبة الاحتفال الشعبى بعض الذين قتلوا فى الحرب ضد اسبارطة عام ٤٣٠ قبل الميلاد ، قال فى تصوير هذه الديمقراطية « انما نسمى حكومتنا ديمقراطية لأنها فى أيدى الكثرة دون القلة وان قوانينا لتكفل المساواة فى العدالة للجميع ، فى منازعاتهم الخاصة ، كما أن الرأى العام عندنا يرحب بالموهبة ويكرمها فى كل عمل يتحقق ، لا لأى سبب طائفى ، ولكن على أسس من التفوق فحسب ، ثم أننا نتيح فرصة مطلقة للجميع فى حياتنا العامة ، فنحن نعمل بالروح ذاتها فى علاقاتنا اليومية فيما بيننا ، ولا يوغرنا ضد جارنا ان يعمل ما يحلو له ولا نوجه اليه نظرات محنقة ، قد لا تضر ، ولكنها غير مستحبة » .

« ونحن نلتزم بحدود القانون أشد التزام فى تصرفاتنا العامة ، وان كنا صرحاء ودودين فى علاقاتنا الخاصة . فنحن ندرك قيود التوقير : نطيع رجال الحكم والقوانين ، لا سيما تلك

القوانين التى تحمى المظلوم ، والقوانين غير المكتوبة التى يجلب انتهاكها عارا غير منكور ، ومع ذلك فإن مدينتنا لا تفرض على العمل وحده طيلة اليوم ، فما من مدينة أخرى توفر ما توفره من أسباب الترويح للنفس — من مباريات وقرابين على مدار السنة ؛ ومن جمال فى منشآتنا العامة ، يشرح الصدر ، ويسر العين ، يوما بعد يوم ، وفوق هذا فإن هذه المدينة من الكبر والقوة بحيث تتدفق عليها ثروة العالم بأسره ، ومن ثم فإن منتجاتنا المحلية لم تعد مألوفة لدينا أكثر من منتجات الدول الأخرى . »

« اننا نحب الجمال دون اسراف ، والحكمة فى غير تجرد من الشجاعة والشهامة ، ونحن نستخدم الثروة ، لا كوسيلة للغرور والمباهاة ، وانما كفرصة لأداء الخدمات . وليس الاعتراف بالفقر عيبا ، انما العيب هو القعود عن أى جهد للتغلب عليه . »

« وما من مواطن أثينى يهمل الشئون العامة لإغراقه فى الانصراف الى شئونه الخاصة ، والشخص الذى لا يعنى بالشئون العامة لا نعتبره « هادئا وادعا » وانما نعتبره غير ذى نفع . »

« واذا كانت قلة منا هم الذين يرسمون أية سياسة ، فانا جميعا قضاة صالحون للحكم على هذه السياسة . وفى رأينا أن أكبر معوق للعمل ، هو نقص المعلومات الوافية — التى تكتسب من النقاش قبل الاقدام — وليس النقاش ذاته » . هذا ما قاله

بركليس فى تصوير الديمقراطية الآتية وهو تصوير طيب ..
ولقد أخذت الديمقراطية من أيام أثينا تنمو وتتطور وتتباين فى ذلك فى مختلف أرجاء العالم، ولكنها تتبع فى كل مكان من مبادىء تحاول أن تبينها بوضوح كنهج متميز ومذ من مناهج الحياة .. نهج للحياة يعترف بكرامة الانسان ، ويحاول أن يقسم تصريف الشئون الانسانية وفق العدل ، والحق ، وقبول الشعب .. ولقد وصلت مرحلة تطوير الديمقراطية الحديثة الى مبادىء يمكن تلخيص أهمها فيما يلى : —

١ — الاعتراف بالمساواة الأساسية بين الناس .

٢ — قيمة الفرد فوق قيمة الدولة .

٣ — الحكومة خادمة الشعب .

٤ — حكم القانون .

٥ — الاسترشاد بالعقل ، والتجربة ، والخبرة .

٦ — حكم الأغلبية ، مع تقديس حقوق الأقلية .

٧ — الاجراءات أو الوسائل الديمقراطية تستخدم لتحقيق الغايات فى الدولة الديمقراطية .

فليست الاجراءات ولا الأجهزة الديمقراطية غاية فى ذاتها ، وانما هى وسيلة الى غاية وراءها .. فليست الديمقراطية

أن تكون لنا هيئة تشريعية ، وهيئة تنفيذية ، وهيئة قضائية ، وانما جميع أولئك وسائل لتحقيق كرامة الانسان .. فان الديمقراطية ليست أسلوب حكم فحسب ، وانما هي منهاج حياة ، الفرد البشرى فيه غاية ، وكل ما عداه وسيلة اليه ، ولا يجد أسلوب الحكم الديمقراطى الكرامة التى يجدها عند الناس الا من كونه أمثل أسلوب لتحقيق كرامة الانسان .

وفى النهج الديمقراطى الحاضر خطأ هو أقل من الخطأ الذى تورطت فيه الشيوعية الماركسية بكثير ، ولكنا رغم ذلك لن نسترسل فى استقصائه هنا وانما نتركه الى حينه فى سفر «الاسلام ديمقراطى اشتراكى» .

وانما تجىء كرامة الانسان من كونه أقدر الأحياء على التعلم والترقى ، وانما تجىء كرامة الديمقراطية من كونها ، كأسلوب للحكم ، أقدر الأساليب لاتاحة الفرص للانسان ليبلغ منازل كرامته وشرفه ، وانما يتعلم الانسان من أخطائه ، وتلك هى الطريقة المثلى للتعليم .. ففى الدكتاتورية تمنع الحكومة الفرد من أن يجرب ، أو يعمل بنفسه ، وبذلك تعطل نموه الفكرى والعاطفى والخلقى ، لأن كل أولئك انما يتوقف نموه على ممارسة العمل ، وتحمل مسئولية الخطأ فى القول ، وفى العمل ، ثم التعلم من الخطأ .. وعلى العكس من الديكتاتورية ، نجد أن الديمقراطية قائمة على الحق فى ارتكاب الأخطاء ، وهذا ليس

معناه الرغبة في الخطأ من أجل الخطأ ، وانما اعترافا بأن الحرية توجب الاختيار بين السبل المحتملة للعمل . ولا يمكن للانسان أن يكون ديمقراطيا حقا دون أن يتعلم كيف يختار ، وان يحسن الاختيار في ذلك ، وان يصحح ، باستمرار ، خطأ الاختيار الذي يبدو منه الفيه بعد الفيه . وفي واقع الأمر فان السلوك جميعه ، وممارسة الحرية برمتها ، انما هي سلسلة من التصرف الفردي في الاختيار والتنفيذ .. أو قل في حرية الفكر ، وحرية القول ، وحرية العمل .. على شرط واحد هو ان الانسان يتحمل نتيجة خطئه في القول ، وفي العمل ، وفق قانون دستوري .

فالديمقراطية هي حق الخطأ .. وفي فهم هذا المعنى جاء حديث المعصوم « ان لم تخطئوا وتستغفروا فسيأت الله بقوم يخطئون ويستغفرون فيغفر لهم » .

ومن كرامة الانسان عند الله أن الحرية الفردية لم يجعل عليها وصيا ، حتى ولو كان هذا الوصي هو النبي على رفعة حده وكمال سجاياه . فقد قال تعالى في ذلك « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر » ، والمعنيون هنا هم المشركون ، الذين رفضوا عبادة الله ، وعكفوا على الأصنام ، يعبدونها ، ويتقربون اليها بالقرابين ، والمنهي عن السيطرة عليهم هو الرسول محمد ، الذي

لم يرد علوا فى الأرض ، والذى قال تعالى عنه « وانك لعلى خلق عظيم » .. من هذا نأخذ أنه ليس هناك رجل هو من الكمال بحيث يؤتمن على حريات الآخرين . ولكن ثمن الحرية الفردية هو دوام السهر الفردى عليها .. وفى الحق ان الحرية الفردية حق أساسى يقابله واجب هو حسن التصرف فى ممارستها . ولما كان مجتمع المؤمنين قاصرا عن الارتفاع الى ممارسة الحرية الفردية فى الاختيار والعمل فقد حمل النبى وصيا عليهم ليعدهم لتحمل مسئولية الحرية الفردية المطلقة ، وهو أثناء وصايته عليهم يصر على اعطائهم حق الخطأ ، كلما وسعه ذلك ، من غير أن يشق عليهم أو يعنتهم .. فهو بذلك انما يعدهم لممارسة الديمقراطية حين يقوى عودهم ، ويستحصد عقلهم .. وبذلك أمر الله حين قال « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » .

وهذه آية الشورى ، والشورى حيث وردت ، سواء فى هذه الآية ، أو فى قوله تعالى « والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » ليست آية ديمقراطية ، وانما هى آية تنزلت من آية الديمقراطية لتعد الناس ليتأهلوا الديمقراطية ، حين يجيء أوانها ..

فالشورى ليست أصلا ، وانما هى فرع ، وهى ليست ديمقراطية ، وانما هى حكم الفرد الرشيد الذى يعد الأمة لتصبح ديمقراطية .. والأصل فى الديمقراطية آيتا « فذكر انما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر »

وبنفس هذا القدر ، الزكاة ذات المقادير ليست اشتراكية ، وانما هى رأسمالية .. وآيتها « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، ان صلاتك سكن لهم » ليست أصلا ، وانما هى فرع . والغرض ورائها اعداد الناس نفسيا ، وماديا ليكونوا اشتراكيين ، حين يجىء أوان الاشتراكية .. والآية الأصل ، التى نزلت منها آية الزكاة ذات المقادير ، هى قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » وقد أسلفنا الاشارة الى ذلك .

ولما كانت الرسالة الثانية تقوم على الارتفاع من الآيات الفرعية الى الآيات التى هى أصل ، والتى جرى منها التنزل الى الفروع لملابسة الزمان ، ولملاءمة طاقة المجتمع ، المادية ، والبشرية ، فقد وجب الارتفاع بالتشريع ، وذلك بتطويره ليقوم على آيات الأصول ، وكذلك يدخل عهد الاشتراكية ، وعهد الديمقراطية . وينفتح الطريق الى تحقيق الحرية الفردية المطلقة بالممارسة فى مستوى العبادة ، ومستوى المعاملة . وهذه هى شريعة المسلمين .. شريعة الأمة المسلمة التى لما تأت بعد ، وقد أصبحت الأرض تتهيأ لمجيئها .. فعلى أهل القرآن أن يمهدوا طريقهم ،

وأن يجعلوا مجيئهم ممكنا ،وميسرا ، وهــذا ما من أجـله كتب هذا الكتاب .

المســاواة الاجتمــاعيه : محو الطبقات والفوارق

هذه أصعــب المســاويات تحقيقــا ، وتعتبــر المســاواة الاقتصادية ، والمساواة السياسيه مقدمة لها ، وهى تتويج لهما ، وخلاصة ، وقمة .

وهى لم تتحقق للانسانية الى يوم الناس هذا ، ولن تتحقق فى المستقبل الا بالجهد الشــاق ،والتربية ، والتعليم ، لتصحيح ، وتغيير ما هو كالطبيعى فى المسلك الانســانى . وهى بذلك أرقى انتاج المدنية فى جميع العصــور . اذ المدنية لن هى الا محــاولة تبعد الانسان عن ربقة الحيوانية الدنيئة ، وتصــوده الى مستوى أعلى من الخلق ،حيث يستبدل قانون الغابة ـ قانون الصمه ، والسيطـرة بالقوة ـ بقــانون العدل ، والحــق ، والمرحمة ـ فيدخل بذلك التحسين فى نوع العلاقات البشريه ، فيحل الرضا محل القوه ، والعدالة محــل الاستغــلال ، والحــرية محــل الكبــت ، والعاطفة المتساميــه بالعقل القوى ، محل العــاطفة الناضبة .

وشأننا مع هذه المســاواة فى هذا الكتاب شأننا مع سابقتيها وهو ارجاء الاستقصاء الى موعده من كتاب « الاسلام ديمقــراطى اشتراكى » حيث نبحثها بحثــا مستقصيا ولكن لابد من الاشارة

اليها هنا بما يحتمله المقام من تطويل .

موضوع المساواة الاجتماعية هو الفرد البشرى ، كما كان الأمر فى شأن المساواة الاقتصادية ، والمساواة السياسية .. فان الفرد البشرى ، كما سبقت الاشارة الى ذلك مرات ، هو الغاية وراء كل سعى جماعى .. هو غاية وسيلتها الاسلام والقرآن ، وهما أعظم الوسائل المنهجية على الاطلاق . ووسيلته أيضا المجتمع ، وهو أعلى ما انتجته الانسانية الى اليوم . والفرد الذى هو غاية هو الفرد البشرى، من حيث هو بشرى .. حتى وان كان أحمق .. فانه يجب أن لا يجعل وسيلة الى شىء سواه .. ومن أجل ذلك وجب ألا تقوم بين الأفراد فوارق من جراء المولد ، أو العنصر ، أو اللون ، أو العقيدة ، أو الجنس من الذكورة والأنوثة . قال تعالى فى ذلك : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » قوله « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » يعنى انما تكون الكرامة بالعلم والخلق .. فان التقوى علم وعمل بمقتضى العلم ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « ان الله عليم خبير » .. « عليم » اشارة الى العلم ..

« خبير » اشارة الى التصرف بالعلم . وقال المعصوم « الناس

لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

وعدم التميز الاجتماعي ضد الضعيف ، ومحو الفوارق التى قامت على قانون الغابة بين الأفراد والطبقات هو عمل التمدين الأكيد ، فاذا وجدت مجتمعاً للضعفاء فيه حق محفوظ ، وكرامة مرعية ، واذا وجدت مجتمعاً للنساء فيه حرية ، وحرمة ، وتشريف ، وللأطفال فيه حقوق،وله بهم عناية ، وعليهم رحمة ، ولهم فيه محبة ، فاعلم أنه مجتمع متمدن ، ومتحضر .

والأسرة هي المجتمع الأول، وفيها تعلم ، ولا يزال يتعلم ، الفرد النظام ،والسلوك الاجتماعي النظيف ، واحترام القانون ، وتوقير السلطة ، والتعاطف ،والتسامح ، والمحبة .. و لا تزال للاسرة مقدرتها الفائقة على تربية لأفراد الترمه التي تكون بعيدة الأثر ، على حياتهم الفردية ،وحياتهم في مجتمعهم الصغير ، وفي مجتمعهم الكبير ،حين يبرزون اليهما ، وعماد الأسرة الأم ، وهي ملكة المملكة الصغيرة ، ولكن مع شديد الأسف فان الاعتراف بها لم تحقق للاسرة الشرقية الى اليوم . فانها كانت ، ولا تزال ، مضطهدة . وكان ،ولا يزال ، دورها في بيتها دور الخادمة .. ولهذا الوضع سود المواقف على تنشئة الأطفال ، مما يترك عميق الأثر في حياة المجتمع برمته وفي جميع مستوياته .

ولقد أسلفنا القول في هذا الكتاب عن أمر المساواة المطلقة

بين الرجال والنساء مما لا تحتاج الى اعادته فى هذا الموضع ،ولكن لا بد من الاشارة الى أن أمر المساواة الاجتماعيه لا يجىء عفوا ، وكأمر طبيعى للتطور ،بل لابد فيه من التخطيط ، والتطور الذكى للمجتمع ، ذلك بأنه يحتاج الى تعليم ، ويحتاج الى تربية .. والتعليم غير التربية فأن غرض التعليم اكساب الفرد الخبرة المهنية التى تجعله مفيدا للمجتمع فى الميدان الذى خلق وهو مستعد له بما ركز فى فطرته من موهبة .. وهو ضرورى ليسلح الأفراد بالقدرات العلمية، والفنيـة ، والاداريـة ، والتكنولوجية ، لتنميه حضارة مجتمعهم ، وللتسامى بها فى مراقى الكفاءة والكفاية . وفى التعليم يقع التخصص ، ويقع التمييز ، ويسود الاتجاه الى التخطيط لاستجاب حاجة المجتمع ـ فيه يقع التمييز بين الرجال ، والنساء . ويقع التمييز بين الرجال ، والرجال أيضا ، ذلك بأنه انما يرمى الى تنمية ، وتغذية الموهبة عند كل موهوب ، حتى يخدم مجتمعه فى الميدان الذى خلق وهو مستعد له استعدادا فطريا ، بيد ان هذا التميز الذى يقع فى ميدين الاعداد لخدمة المجتمع المدنية لا يحمل معه اى امتيـاز اجتماعى ترتفع به ، تلقـائيا ، مكانة فرد فوق فرد آخر .. وفى هذه النظـرة ، التى تتجـه الى أعـداد المواطنين أعدادا مهنيـا بواسطة برامج التعليم الموجه ، قيمة المرأة غير قيمة الرجـل .

ولكنها قيمة مساوية تميمة .. بمعنى ان المرأة ، حتى تعد لتكون أما ، بأن تعلم كل ما يؤهلها لهذه الوظيفة الحيوية المشعبة ، لا تقل خدمتها للمجتمع ، في نظر المجتمع ، عن خدمة أخيها الذي يعد ليكون مهندسا ، أو طبيبا ، أو مشرعا .. وليس لاعداد الأمومة الصالحة حد تقف عنده ، فان المرأة كلما علمت كلما زادت كفاءتها في ميدان الأمومة تفسها .. ومن أجل مصلحة المجتمع يجب أن يعلم كل فرد عملا يتقنه باليد وبالعقل ، وهو كذلك من مصلحة الفرد نفسه ، لأن الانسان لا تسمح فيه الفكرية ، ولا قيمه الخلقية ، الا اذا كان يحب العمل اليدوى ، ويتقن طرفا منه اتقانا حسنا ، ذلك بأن الترقي جميعه انما هو علم ، وعمل بمقتضى العلم .. قال تعالى في ذلك « اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » كل هذه المسائل تدخل في غرض التعليم ..

وأما غرض التربية فهو تحرير المواهب الطبيعية العقل ، والقلب ، من أسر الأوهام ، والأباطيل .. فبسلامة القلب من الخوف ، وصفاء الفكر من الأوهام ، تتحقق حياة الفكر ، وحياة الشعور ، وهي غاية كل حي .. وهي مهمة التربية .. وللتربية وظائف كثيرة هي في جملتها نقل الانسان من الاستيحاش الى الاستئناس ، حيث تصبح عاداته جميعها انسانية ، ومهذبة .. فهو يأكل بطريقة انسانية ، ويشرب بطريقة

انسانيه ، وينام ، ويجلس ، ويتحدث ، ويتصرف فى جميع شئونه ، العامة والخاصة ، بطريقة انسانية ومهذبة ، فلا يعرض ببدنه ، ولا يبدر منه ما يؤذى السمع ، ولا البصر ، ولا العقل ، ولا القلب .. وهو لا يبصق فى الأماكن العامة النظيفة، ولا يتبول ، ولا يتغوط ، فى الأماكن العامه . ولا يرمى الأوساخ ، والقاذورات ، فى الأماكن النظيفه على الطرقات . وهو ، على العموم ، يحاول ، بجهد الطاقة ، أن يترك كل شىء على صورة أحسن من التى وجده عليها .. ويجب أن يجد لكل أولئك التربية .. التربية فى المدارس ، وفى النوادى ، وفى الأماكن العامة ، حيث يجرى التثقيف ، والتعليم ، للشعب ، كل حين ، وبغير انقطاع ، وبكل وسائل الاعلام التى تستطيع الدولة أن توفرها ، من اذاعة ، وتلفزيون ، وسينما ، ومسرح ، وصحافة ، وكتب ، ومجلات ، ومحاضرات ، وأنواع التسجيل المختلفة ، لأنواع الفنون المختلفة ، حيث توجه الدولة كل امكانات المجتمع لاصحاب الأفراد الناضجين ، وذلك بتوخى النهج التربوى السليم .. فان مشاكل المجتمعات كون أغلبية الأفراد أما مراهقين ، أو أطفالا .. ويقل فيها الأفراد الناضجون الذين يقوون على مواجهة الحقيقة ، «والأطفال يتاسون بمبدأ اللهو ، وهو مبدأ يجعل الانسان يتصرف مدفوعا بأهوائه ورغباته، ويحاول أن يحقق أية رغبة عند ظهورها ، دون أن يوازن بين

رغبة وأخرى وينفذها ، ويقترن الجرى وراء هذا اللهو الوقتى المباشر بحجب ما قد يسبب الفشل ، أو الألم ، أو الانكار ، ومسلك كهذا ينشأ من الفشل في التمييز بين الرغبات المتنازعة على أساس معقول طويل المدى . وغالبا ما يحل التمنى محل ما هو محتمل أو مرغوب فيه)وليس هناك مخرج الا عن طريق التربية .. والتربية ، بخلاف التعليم ، لا يقع فيها التخصص ، ولا التمييز بين الرجال والنساء ،وانما هي حق أساسى لكل فرد بشرى ، وهي تشمل حتى الأطفال ، ولا تحد الا بطاقاتهم على التلقى، والادراك،والتمييز. ولقد تحدثنا عن أسلوب الاسلام في التربية فيما سلف من هذا الكتاب مما لا موجب لاعادته هنا.

والقاعدة الذهبية في التربية هي أن تضع الأفراد أمام المسئولية وأن تعينهم ، بكل الوسائل ، على تحمل المسئولية، ذلك بأن غرض التربية هو انجاب الأفراد الناضجين .. هو انجاب الرجال ، من الأطفال،ومن المراهقين ، الذين تعج بهم المجتمعات عجيجا .. والفارق بين الأطفال والمراهقين ، وبين الرجال هو أن الرجال يتصرفون بحرية ، ويتحملون مسئولية تصرفهم، بينما الأطفال والمراهقون يتركون التصرف خوف المسئولية ، أو يتصرفون ويحاولون الهروب ، تحت الظلام ، من مسئولية تصرفهم .

خاتمة

أما بعد فان فصل القول فى أمر الرسالة الأولى ، والرسالة الثانية،هو أن للدين شكلا هرميا،قمته عند الله ، حيث لا عند ، وقاعدته عند الناس .. « ان الدين عند الله الاسلام » ، ولقد تنزلت هذه القاعدة من تلك القمة.. تنزلت الى واقع الناس ، وحاجتهم ، وطاقتهم البشرية ،والمادية ، فكانت الشريعة .. وستظل قمة هرم الاسلام فوق مستوى التحقيق ، فى الأبد ، وفى ما بعد الأبد . وسيظل الأفراد يتطورون فى فهم الدين ، كلما علموا المزيد من آيات الآفاق، وآيات النفوس .والله تبارك وتعالى يقول « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟» ويقول « ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء » وهو تبارك وتعالى يشاء لنا الزيادة من علمه كل لحظة ، وفى ذلك يقول « كل يوم هو فى شأن » وما شأنه الا ابداء ذاته لخلقه ليعرفوه .. وهو تبارك وتعالى يطلبنا فى ذلك فيقول « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدنى علما » وما الزيادة فى العلم الا ترق من قاعدة الهرم نحو قمته فى تطور مستمر .. وحين يتطور الانسان فهم الدين ، فى فهم الدين ، يطور شريعته ، تبعا لحاجته ولطاقته ، من القاعدة الغليظة الى قاعدة أقل غلظة ..

فالأفراد يتطورون فى فهم الدين فيدخلون فى مراتب الشرائع

الفردية ، والمجتمعات تتطور ، تبعا لتطور الأفراد ، فترتفع شرائعها من قاعدة غليظة الى قاعدة أقل غلظة .. وذلك صعدا في سلم هرم قاعدته شريعة الرسالة الأولى ..

فاذا كانت قمة هرم الدين ، فيما يختص بالمال ، هي آية «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو» فان قاعدته هي آية « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، ان صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم » ، وعليها قامت شريعة الرسالة الأولى في الزكاة ذات المقادير ، وجعلت شريعة في المال ، وركنا في العبادة ، وذلك لأن الناس لم يكونوا يطيقون أفضل منها ، وترك أمر تحقيق قمة الهرم للأفراد ، كل حسب طاقته ، وورد الترغيب في التسامي في قول المعصوم حين قال « في المال حق غير الزكاة » وورد في قوله تعالى حين قال « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » وذلك لأن شريعته هو في المال ، وركنه في العبادة ، هو أقرب الى القمة ..

واذا كانت قمة هرم الدين، فيما يختص بالسياسة ، هي آيتا « فذكر انما انت مذكر * لست عليهم بمسيطر » فان قريبا من قاعدته آية الشورى « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا ، غليظ القلب ، لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » وقاعدته على الاطلاق هي آية السيف « فاذا

انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا ، وأقاموا الصلاه ، وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم » .

وعلى هذه القاعدة قامت شريعة الجهاد ، وعلى آية الشورى قامت شريعة الحكم ، على أساس وصاية الفرد الرشيد على المجموعة ..

فقاعدة الهرم في هذه ليست ديمقراطية . وانما هي أقرب ما تكون الى الديمقراطية ، في وقت لم تكن الديمقراطية قد عرفت ، ولم يكن المجتمع مستعداً لممارستها .

وقاعدة الهرم في تلك ليست اشتراكية ، وانما هي أقرب ما تكون الى الاشتراكية . في وقت لم تكن الاشتراكية ، بمفهومها العلمي ، قد عرفت ، ولم يكن المجتمع مستعداً لممارستها ..

فاذا كانت البشرية ، في مدى أربعة عشر قرناً قد قطعت أرضاً شاسعة نحو النضج ، واصبحت تستقبل عهد الرجولة ، وتستدبر عهد الطفولة .. واصبحت ، بفضل الله ، ثم بفضل هذا النضج ، تطيق ، مادياً وفكرياً ، الاشتراكية والديمقراطية ، فقد وجب أن تنشر بالاسلام على مستواها ، وهذا يعني الارتفاع من قاعدة شريعة الرسالة الأولى المنبطقة

الى قاعدة أمن علطة ، رتضع هونا ما نحو القمه ، وستظل القمة دائما فى منطقة الفرديات .. وأدنى منزل القاعدة الجديدة هي المدخل على الاشتراكية ، وذلك بتحريم تمليك وسائل الانتاج ، ومصادر الانتاج ، على الفرد الواحد ، أو الأفراد القليلين فى صورة شراكة .. فأن هذا يفتح أبواب التشريع على الاشتراكية .

وأدنى منازل القاعده الجديدة هى المدخل على الديمقراطية وذلك بوجوب حق الانتخاب لكل مواطن ، ولكل مواطنة ، بلغ وبلغت سنا ، معينة مثلا ، وكذلك حق الترشيح .. فأن هذا يفتح أبواب التشريع على الديمقراطية .

وهذا الصنيع هو ما يسمى تطوير التشريع .. فهو ارتفاع ، من نص فرعى ، يستلهم أكثر ما يمكن من التسامى نحو نص أصلى .. هو ارتفاع من نص الى نص .

وهناك تشريع متداخل بين الرسالة الأولى والرسالة الثانية كتشريع العبادات ، وهذا لايدخل فيه ، من التطوير ، الا ما يجعل قمته مفتوحة على منازل الشرائع الفردية ، لكل فرد تسامى ، بفضل الله ، ثم بفضل اتقان التقليد ، الى تحقيق فرديته التى يمتاز بها عن أفراد القطيع .

فالشريعة الجماعية ليست أصلا ، وانما الأصل الشريعة الفردية ، ذلك ، وبنفس القدر الذى به الجماعة ليست أصلا ،

وانما الأصل الفرد .. ولكن الناس لكثرة ما ألفوا المعيشة في الجماعه ، ولشدة أثر غريزة القطيع عليهم ، ظنوا الأمر بعكس ذلك . فانت تراهم يستغربون ،ويستوحشون عندما تكلمهم عن الشرائع الفردية . ولأمر آخر أيضا ، فان الشريعة الفردية مرتبة رجولة ، ومرتبة مسئولة . والناس لا يزالون أطفالا ، يحبون أن يحمل غيرهم عنهم مسئوليتهم ، ويطيب لهم أن يظلوا غير مسئولين .. أو هم ان احتملوا المسئولية فانما يحتملونها في القطيع ، وعلى الطريق المطروق . أما أن يكون المسئول وترا ، وان يطرق طريقا نكرا ، فانه أمر مخيف ، ولا يجد في النفوس استعدادا ، ولا ميلا .

والمدخل على الرسالة الثانية الرسالة الأولى . الا ما يقع عليه التطوير من تشريعها .. ولا يقع التطوير في أمر العبادات الا على الزكاة ذات المقادير ، وما ذاك الا لأنها ليست ركنا تعبديا الا لعلة ان الناس لم يكونوا ليطيقوا أفضل منها ، والا فان الركن التعبدي انما هو زكاة المعصوم . ولا يقع التطوير على تشريع المعاوضة ، وما ذاك الا لأنه أصيل ، وقد بني على الأصول الثوابت من الدين . وانما يقع التطوير في تشريع المعاملات ، كالحقوق الأساسية للافراد ، وكالنظم الاقتصادية والسياسية، الى آخر ما يرتبط بتحولات المجتمع ، وما يسرع اليه التغيير من هذه النظم التي يجب أن تواكب المجتمع في حيوية ،

واقتدار على التجدد ، والنمو ،والتطور ، وقد سبقت الى كل أولئك الاشارة فى هذا الكتاب.

فالأصل فى الرسالة الثانية الحيوية والتطور ، والتجدد ، وعلى السالك فى مراقيها أن يجدد حياة فكره ، وحياة شعوره كل يوم ، بل كل لحظة ، من كل يوم ، وكل ليلة .. مثله الأعلى فى ذلك قول الله تبارك وتعالى فى شأن نفسه « كل يوم هو فى شأن » ثم هو « لا يشغله شأن عن شأن » .

فهو حين ينتقل من مدخل شهادة «ألا اله الا الله،وأن محمدا رسول الله » يجاهد ليرقى باتقان تقليد المعصوم الى مرتبة « فاعلم أنه لا اله الا الله » ثم يجاهد باتقان هذا التقليد حتى يرقى بشهادة التوحيد الى مرتبة يتخلى فيها عن الشهادة ، ولا يرى الا أن الشاهد هو المشهود،ويطالع بقوله تعالى « شهد الله أنه لا اله الا هو ، والملائكة ،وأولو العلم ، قائما بالقسط ، لا اله الا هو ، العزيز الحكيم »وعندئذ يقف على الأعتاب ، ويخاطب كفاحا ، بغير حجاب« قل الله ! ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » ، و« قل » هنا تعنى« كن » وههنا مقام الشرائع الفردية . وحين يرقى السالك فى مدارج الرسالة الثانية من مدخل الرسالة الأولى على النحو الذى بينا يكون قد قطع درجات السلم السباعى ، من درجة الاسلام ، الى الايمان ، الى

الاحسان ، الى علم اليقين ، الى عين اليقين ، الى حق اليقين ، الى الاسلام من جديد ، ثم يبدأ من جديد ، على مستوى جديد ، دورته الجديدة ، وهكذا دواليك .

ان الاسلام سلم لولبى ، أوله عندنا فى الشريعة الجماعية ، وآخره عند الله ، حيث لا عند ، وحيث لا حيث .. والراقى فى هذا السلم لا ينفك فى صعود الى الله « ذى المعارج » فهو فى كل لحظة يزيد علمه ، ويزيد ، تبعا لذلك ، اسلامه لله . وتتجدد بكل أولئك حياة فكره ، وحياة شعوره .. ودخول العارج ، فى هذه المراقى ، على مرتبة الشريعة الفردية ، أمر محتم ، وليس هو بالمقام البعيد المنال ، وانما محك الكمال ، الذى تقطع دونه الأعناق ، هو أن تكون حقيقتك عند الله وأن تكون شريعتك الفردية طرفا من حقيقتك هذه . وهيهات !! هيهات . فلن ذلك سير فى الاطلاق .. وليس فى هذا القول مثالية ، لأنه ، فى طرفه العملى ، قد تنزل الى أرض الناس ، وأخذ يشدهم الى المطلق ، على تفاوت فى التحصيل بينهم ، كل حسب مبلغه من العلم . فهم فى سلم صاعد ، عدد درجاته بعدد الأنفس ، و « فوق كل ذى علم عليم » الى أن ينتهى العلم الى « علام الغيوب » .

لن هـذا يعنى أن حـظ الانسان من الكمال لا يحـده
حد ، على الاطلاق • موعـود الانسان من الكمال مرتبة الاله•
ومع ذلك فان النهج الى تحقيقه لا يقوم على المثالية ، وانما يقوم
على الواقعية الملموسة فى مسلك العبادة ، وفى مسلك المعـاملة ،
وقد سلفـت الى كل أولئـك التفاصيل •• وبحسب الانسان
أن الله قد ادخر له من كمال حياة الفكر ، وحياة الشعور ، مالاعين
رأت ، ولا أذن سمـعت ، ولا خطر على قلب بشر •

لك الحمـد اللهم كما انت اهله ، حمدا كثيرا ، طيبا مباركا فيه•

تصـويب الخطـأ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٣	٦	يجـزيه	يجز بـه
١٤٦	٢	وشرعنا لقتال	وشرعنا القتال
١٣٢	١١	سقطت آية «حم» نرجواضافتها	

بين « ص » و « حم ـ عسق »

من اجل البعث الاسـلامي

من أجل استيعـاب فكرةالبعث الاسـلامي هذه نوصي ، بالاضافة الى قراءة هذا الكتاب ،بقراءة الكتب الآتية : ـ

١ ـ رسـالة الصـلاة
٢ ـ الاسـلام
٣ ـ لا الـه الا الله
٤ ـ طـريق محمـد

قراءة طريق محمد تمامها بالعمل بـه ..

« من عمـل بمـا علم أورثـه الله علم مـالم يعلم »

هـــذا الكتاب

« ان الاسلام رسالتان : رســـالة اولى قامت على فروع القران ، ورسالة ثانية تقوم على اصوله .. ولقد وقع التفصيل على الرســـالة الاولى .. ولاتزال الرسالة الثانية تنتظر التفصيل .. وسيتفق لها ذلك حين يجيء رجلها ، وحين تجيء امتها وذلك مجيء ليس منه بد .. « كان على ربك حتما مقضيا » »..

هـــذا الكتاب

« من الخطا الشنيع ان يظن انسان ان الشريعة الاسلامية في القرن الســـابع تصلح بكل تفاصيلها ، للتطبيق في القرن العشرين ، ذلك بان اختلاف مســـتوى مجتمع القرن السابع ، عن مستوى مجتمع القـــرن العشرين ، امر لا يقبل المقارنة ، ولا يحتاج العارف ليفصل فيه تفصيلا ، وانما هو يتحدث عن نفسه فيصبح الامر عندنا امام احدى خصلتين : اما ان يكون الاسلام ، كما جاء به المعصوم بين دفتي المصحف ، قادرا على استيعاب طاقات مجتمع القرن العشرين فيتولى توجيهه في مضمار التشريع وفي مضمار الاخلاق ، واما ان تكون قدرته قد نفدت وتوقفت عند حد تنظيم مجتمع القرن السابع ، والمجتمعات التي تليه مما هي مثله ، فيكون على بشرية القرن العشرين ان تخرج عنه ، وان تلتمس حـــل مشـــاكلها في فلسفات اخريات ، وهذا ما لا يقول به مسلم .. ومع ذلك فان المسلمين غير واعين بضرورة تطوير الشريعة » ..

هـــذا الكتاب

المسلمون يقولون ان الشريعة الاسلامية كاملة .. وهذا صحيح .. ولكن كمالها انما هو في مقدرتها على التطور ، وعلى اسـتيعاب طاقات الحياة ، الفردية ، والاجتماعية ، وعلى توجيه تلك الحياة في مدارج الرقي المستمر ، بالغة ما بلغت تلك الحياة الاجتماعية ، والفردية من النشـاط ، والحيوية ، والتجديد ..

جمادى الآخر ١٣٩١ ـ يوليو ١٩٧١
السودان ـ امدرمان ـ ص.ب ـ ١١٥١

الثمن ١٠ جنيهات